

# فِي شَأْنِ اللَّهِ أَوْ تَارِيخُ السُّودَانِ كَمَا يَرَوِيهِ أَهْلُهُ

تأليف

محمد أحمد البخاري

دار البعث  
الناشر  
دار الفكر العربي

طبعة فُسْتُة مَشْرُوعَةُ الْبَيْتِ

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

أما بعد فقد طلب إلى صديقي الأستاذ محمد أحمد الجابري تقديم رسالة في شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله ، إلى أبناء الوادي الأفاضل الذين يهمهم الوقوف على كل ما يكتب أو يقال عن السودان وعن أهله بحثاً وراء الحقيقة وإرواء لظماً حب الاستطلاع والمعرفة فأجمنت في بادئ الأمر لأسباب عدة منها أني لا أعد نفسي من زمرة الراسخين في العلم الذين أفنوا العمر في البحث والاطلاع والكتابة والنشر حتى تصدروا صفوف العلماء والمتعلمين وبرزوا الباحثين والمؤلفين فبعد صيتهم وارتاحوا إلى ما أدركوا من شهرة واسعة اتبع لهم الاكتفاء بتنسيق المقدمات لكل كتاب بطبع وإرجاء المقالات في تعريف أصحاب المؤلفات إلى جمهور القراء الكرام ، وإن كنت قد نزلت في آخر الأمر على رأي صديقي الأستاذ محمد أحمد الجابري فحرصت على التقديم لكتابه القيم ، فأما أفضل ذلك منحيًا وحسبي شفيعاً في عند القاري الكريم تلك السترات العشرية التي قضيتها في

دراسة وتدریس تاریخ القطرین الشقیقین مصر والسودان — وما  
وانجزته من بحوث — علی وجه الخصوص فی نفس الموضوع الذی  
یکتب فیہ الیوم الأستاذ الجابری وفضلاً علی أن التقدیم لهذه الرسالة  
التي بأبدی القاریء الکریم بعد فی حد ذاته متعة وأی متعة . ذلک بأن  
الأستاذ محمد أحمد الجابری من الرجال المصریین القلائل الذین قضوا  
فی خدمة حكومة السودان سنوات عدة واختلطوا بالسودانیین قبائلهم  
وعشائرهم فعرف عاداتهم وأخلاقهم وأدرك کثیرین من حضر والوفائع  
التي دون أخبارها فی رسالته وكان لروابط النسب والمصاهرة التي ربطت  
بینه و بین الأسر الکریمة فی القطر الشقیق أعظم الأثر فی أن یرکن  
إلیه السودانیون ینقلون إلیه أخبارهم علی حقیقتها — و یکشفون له  
من خفايا نفوسهم ویطلعونه علی هواجسهم ویسطلون له أمانیهم .

واندمج الأستاذ محمد أحمد الجابری فی أوساط السودانیین اندمجا  
تاماً فذوق آدابهم وحفظ أشعارهم و ( أزهالمهم ) وعرف ما تطوری  
علیه أمثالهم وأقوالهم من معان لا یدرکها سوى السودانیون أنفسهم  
بل أنتهی به الأمر إلی إتقان لهجات ولغات العشائر والقبائل السودانية  
العریبة والزنجیة علی السواء . أضف إلی هذا أن الأستاذ لم تنقطع صلاته  
بالسودان وأهله بسبب اعتزاله الخدمة ، بل أن هذه الصلات ما زالت  
یفضل الله نامیة وحلیدة یقصدہ أفاضل السودانیین عند زیارتهم للقاهرة ،  
یتحدثون إلیه فی أخص شئونهم ویمدونه بفیض من المعلومات الصحیحة  
عما یمجرى ویحدث بالسودان . حتی أصبح الأستاذ بحق بمثابة مرسوعة

من الموسوعات التي لا غنى لسكل باحث في شئون السودان وتاريخه عن الرجوع إليها ، والانتقال منها ، وإلى لطيف لي أن أذكر في هذا المقام ما سبق أن ذكرته عند تصدير كتابي الأخير ، الحكم المصري في السودان ، أنه كان لأرشادات الأستاذ الحكيم أفضل الأثر في إخراج ذلك الكتاب في صورته التي نشر بها . أضف إلى هذا أن هناك كثيرين غيري حرصوا على الانتفاع بمواهبه فكان الأستاذ محمد أحمد الجابري أحد الحنود الذين أقبلوا على العمل في خدمة قضية الوادي المقدسة من غير جلبة ولا ضوضاء نخدم الرغبة الصادقة في إعلاء شأن الوطن وتحقيق أمان البلاد المنروعة في وحدتها المقدسة .

والكتاب الذي بأيدينا جديد في أسلوبه وطريقته ويسد نقصا ظاهرا في كل ما كتب ونشر عن السودان وأهله . ذلك بأن المؤرخين الذين تناولوا قصة السودان ، حرصوا على دراسة الوثائق والأوراق الحكومية وبحث ما كتبه الرحلون والمعاصرون الأجانب من مطبوع ومخطوط قبل أن يسجلوا وقائع هذه القصة ويحاولوا تفسير دقائقها وهذه جهود حميدة نفتضيه أن يبذلوها ولا شك أساليب البحث العلمي الحديث . ومع ذلك فاتهم شيء واحد أو قل أنهم أرغموا إرغاما على إغفال ناحية هامة من نواحي هذه الدراسة الواسعة ، هي موقف السودانيين أنفسهم من الحوادث التي كانت تجري بيلاדם وآراؤهم فيها ، وتفسيرهم لها ونظرم إليها منذ أن بدأ السودان يأخذ بأسباب الحضارة والوقى على يد محمد علي إلى الوقت الذي اندلع فيه طيب الثورة

المهدية . وسبب هذا الإغفال واضح جلي فقد عرف السوداني بالذكاء  
وحبائه المولى عز وجل بقرينة وقادة وذاكرة حافظة واعية . فاعتمد  
السودانيون على الرواية ينقل الآحفاذ عن أجداد والآبناء عن الآباء ،  
أخبار الوقائع وتفاصيلها ، وصاروا يصفون بتسجيلها فلم يصل إلى  
أيدينا سوى تواريخ ثلاثة مشهورة معروفة . الأول كتاب الطبقات  
في خصوص الأولياء ، والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لصاحبه  
محمد حنيف الله بن محمد الفضلي الجعلى المتوفى في عام ١٨٠٩ وتوفي في  
مدينة سنار وهو مخطوط ، نسخته كثيرون وأضافوا إليه زيادات  
وصلت بحوادثه إلى عام ١٨٧٦ ميلادية وجاء ما دون فيه بعد دخول  
المصريين إلى السودان ، والثالث كتاب السودان المصرى والإنكليز ،  
وهو عبارة عن مجموعة رسائل نشرتها جريدة الأهرام القراء قبل أن  
يضم شتاتها كتاب واحد في عام ١٨٩٦ وصاحب هذه الرسائل الشيخ  
محمود القباني ويعد سودانيا وإن كان مولدا من أب تركي وأم صعيدية  
نزع إلى السودان وعاش طويلا بين أهله وتزوجت أخت له من محمد  
أحمد المهدي وقد عمر الشيخ طويلا وما يزال على قيد الحياة . يمكن  
حالة حمد في الخرطوم بحري ، وحضر أكثر الوقائع السودانية من أيام  
غردون ووقف على دقائق الثورة المهدية وشهد ذيرعها وانتشارها .  
وكتاب الشيخ القباني فريد في نوعه لأن صاحبه حاول أن يبرزه في  
صورة ظاهرة ما كان يحتاج في قفوس السودانيين من عواطف وبحول  
في أذهانهم من أفكار وخواطر نتيجة لرد الفعل الذي نجم من تلك

الاجراءات التعسفية التي عمد إلى اتخاذها بيكر وغردون وأعدوانهما من  
الحكام ، الكفار ، تحت ستار إبطال الرق والقضاء على النخاسة في  
السودان . وقد نجح الشيخ القباني في إظهار العلاقة بين ذلك كله وبين  
ظهور دعوة محمد أحمد وذبوع المهدي في السودان ولعل أهم ما يسترعى  
النظر في كل ما كتبه الشيخ القباني ، أن السودانيين كانوا يعتقدون  
اعتمادا جازما بأن الإنكليز ، والأتكليز وحدهم هم سبب كل تلك  
الكوارث التي نزلت بالسودان وأهله وأنهم أصحاب تلك المؤامرة  
الشائنة التي انتهت بقيام الثورة ، وإرغام مصر على إخلاء القطر الشقيق  
حتى يتفردوا هم بحكمه ويتوصلوا إلى إنقاذ مآربهم في تلك البلاد على  
حد قوله .

وقد حاول الأستاذ محمد أحمد الجابري في كتابه الذي بين أيدينا ،  
أن يكمل في الحقيقة رسم تلك الصورة التي حاول الشيخ محمود القباني  
رسمها منذ نيف وخمسين عاما ذلك بأن الشيخ اختص كل مقالاته تقريبا  
بذكر حوادث الثورة المهديّة الأولى فلم يمتح بصحيفة واحدة من تلك  
الجلابون وسائر الأهلين من عنث وإرهاق على يد السير صموئيل  
بيكر وخليفته غردون في مديرية خط الاستواء بسبب ما اتهمه كلاهما  
من خيانة مصادرة الأموال والأوراق وسفك الدماء وإزهاق الأرواح  
ثم ما فعله غردون نفسه عند تمهينه حكماء السودان أي حاكما عاما أو  
عند حضوره لتنفيذ سياسة الإخلاء المدبرة فاجبري الأستاذ الجابري  
ليبان الأثر العميق الذي أحدثه ذلك كله في نفوس الأهلين ، وفضلا

عن ذلك فقد اجتمع لدى الأستاذ الجابري من أقوال السودانين أنفسهم الذى شهدوا وقائع مضادة للجلايين والأهلين الوادعين المسابيين فى كردفان ودارفور وبحر تغزال وعاصروا حوادث إعدام سليمان الزبير وقتل الصباحى وهارون ابن إبراهيم سلطان دارفور ما يجعله يحرم بأنه لولا هذه المذابيح لما علا شأن المهدي فى السودان ولما انتشرت المهديّة فى ربوعه لأن استشهاد الرعاع والقادة أمثال سليمان والصباحى وهارون ثم احتجاز الزبير رحمه باشا فى القاهرة — كان كل هؤلاء موضع ثقة السودانين العظيمة ، سرعان ما أدخل الميدان فى السودان لظهور محمد أحد ، وكان من عوامل الاغراء القوية التى دعت الفقيه الامام لاعلان أنه المهدي المنتظر وكما كانت رسائل الشيخ محمود القبايى تنظمها فكرة واحدة هى مسمى الانكاز فى قالب السودانين على أخوانهم المصريين ونشر المفاسد فى البلاد وإرغام مصر على إخلاء سطر الوادى الجنوبى فان كتاب الأستاذ الجابري يقوم على فكرة ظاهرة قد تفسر حقيقة هذا المسمى أو هذه المؤامرة الانكليزية هى أن سياسته إلغاء الرق وإبطال النخاسة باستخدام السيف والنار تحت ضغط الانكاز ، كانت سببا قاطعا فى إثارة الحقد ضد حكومة الخرطوم وإشعال نار الثورة . ولما كان المهيمون على هذه الحكومة من الأوروبيين وأهل التليفات الذين عرفهم السودانيون باسم الكفار ، فقد سهل أن تصبغ هذه الثورة الخطيرة بصيغة دينية ، وأن يدعو محمد أحد إلى الجهاد فى سبيل

الله أو ، في شأن الله ، هذا النداء الذي اختاره الأستاذ الجابري  
عنوانا لكتابه .

وأما مبلغ توفيق الأستاذ في إبراز هذه الحقائق فإن ذلك من  
شأن القارئ الكريم أن يفصل فيه وحده بعد قراءة هذه الرسالة  
المتعة وحسب أن اختتم هذه الكلمة فأقول أن الأستاذ الجابري قد  
أسدى للتاريخ خدمة جليلة في هذه المحاولة التي أراد أن يكشف بها عن  
آراء السودانيين أنفسهم في أسباب ظهور الإمام محمد أحمد واندلاع  
خيب الثورة المهديّة .

محمد فؤاد شكرى

القاهرة سبتمبر ١٩٤٧



## توطئة الكتاب

هَذَا تَارِيخُ السُّودَانِ كَمَا يَرَوِيهِ أَهْلُهُ أَثَرْنَا تَسْمِيَةً

« فِي شَأْنِ اللَّهِ »

رديدا للصيحة الداوية التي عمت السودان وترديدا لقوله تعالى  
« إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ » ، فأكاد الإمام محمد أحمد يقولها باللغة المحكية  
حق خلعت الأذهان وانسابت في أنفوس وصارت تجري على كل لسان  
وبفعل الحوادث والاحداث وعوامل الزمان والمكان ، أثارت  
النخوة في النفوس وصار الكل من « الانصار » — انصار المهدي —  
يرددوها فكانوا أشبه بنهر طلي وقاض مأواه من فوق الجسور فأغرق  
الحقول وخرب المزارع ولم يبق اندفاعه شيئا أمامه .

وهذا تاريخ ما هو الا نتيجة لأقوال صادقة . وثمرة اختبارات  
شخصية دقيقة ، تحملت في ضم شنائها مشقات ، وعانيت في الوقوف  
عليها صعوبات ، فقد استقيتها من رجال ميامين كانت لهم مكانة مرموقة  
بالاجلال في عهدي « التركية السابقة » و « المهدي » .

ولما كانت أقوالهم تفيض اخلاصا وصدقا — بما لم تستوعبه

الكذب ولا يمكن أن يلزم بها أى مكتوب ، فقد اخترتها وراعتها فى حكمة  
وتقدير حتى أن لى أن ادعها نخرج للناس ليرى - أبناء هذا الجيل -  
وأبيه فيها : سائلا المولى عز وجل أن يوفق الحاضرين لما وقعت دونه  
جمود السابقين .

وتؤرخ السودان هذا بسيط يسرد الحوادث ويصف المآسى  
لا قيمة خاصة به بل تبعاً لما أثاره فى نفسى من احساس وفى ذهنى من  
تفكير وهو يعنى ما طرأ على السودان فى الفترة من سنة ١٨٦٩ الى  
سنة ١٨٨٥ ميلادية من حوادث واثار ، ونواطر وافكار ، ووجدانات  
ومشاعر ، وافعال ومآثر ، ومشاهد ومناظر ، وقراءات الاوائل للواخر  
لعميد القابر للحاضر ، وتصف اولى العزم ومآثرهم ، ومناقب ذوى الفضل  
ومفائدهم ، فى زمن فتن ثائرة ، وخطوب طائرة ، وحروب دائرة .  
وصروف جائرة ، ومكآرم باثورة ، ونفوس حائرة . . . . . لذا ارجو  
القارىء الكريم أن لا يحاول تحميل هذه الرسالة اكثر مما تحمل ويتقبلها  
عنى علاقتها بصورة من نفس صاحبها يقدمها الى اقاربه وأصدقائه فى  
السودان . . . . . وإذا استطعت أن اصحبهم فى رحلتى الفكرية . وأخفف  
عنهم ملل الحاضر بمآسى الماضى . فقد نجحت فى أطيب المهمات الى  
نفسى . أن ارتاد معهم ماضيا يشعرون فيه بشعورى ويفكرون  
فيه بتفكيرى .

ولست ادعى أنى مؤرخ فان هذا لقب اسمى من أن أصل إليه . . .  
ولكن دعنى ألقت النظر الى اننى فى الثنتين من عمرى وانى صرمت

نصف هذا العمر في السودان . كان لي الحظ أن تزوجت منه ولى أولاد وبنات وصلة رحم بين أطيب العشائر وأكرم العائلات . وقد درجت على حب السودان والإعجاب بأهله وقضيت أهم أدوار حياتي في ربوعه : بين الشمال والجنوب . والشرق والغرب ، فتمكنت في أوامر الحب والإعجاب بأهل السودان : فبدأت إلى ، الريف ، نى مصرى العزيزة استعمل الحب والإعجاب إيماناً بكل ما هو سودانى .

كانت حياتي في السودان متسعة الآفاق متشعبة الأطراف وأن قلبي لبضيس بألاف الذكريات الكريمة ، وحافظتى لحتى الأحداث العظيمة ، ومن العسير أن يمتنع المرء ذكره نه ثم يحرقها كما يحترق الجمل عنقه أمام ما تبديه الجرائد الانكليزية والمصحف الافصالية من التشيع بماض مصر في السودان . حيث يقولون أنه كان عهد استبداد واستعباد ورشوة — فكانت هذه الاسباب — كما يدعون — بواعث الثورة المهدية .

ومن العجب أن أكثر الباحثين والمفكرين في هذه الأيام الذين تناولوا تاريخ السودان . لم يكتبوا عن بواعث الثورة المهدية كتابة وافية بل تركوا هذه الناحية دون أن يوارها حقها من البحث والدرس مع أن الثورة المهدية كانت — بلا مرأ — السبب الرئيسى لذلك التحول الذى حدث في مقدمات السودان والذى تولاه لما كانت تلك الشحنة اتى فعاليها اليوم .

وعما يؤسف له حقاً أنه منذ بدخل الانكليز في شؤون مصر جرت الاقدار بأن تظل كثير آمن وقانع التاريخ المصرى — السودانى بمهولة أو أن

كتب التاريخ ظلت تجدد فيها دأبت على إداعته الأخبار الرسمية معاً  
لا ينسب تعتمد عليه في سرد وقائعها فاشتملت هذه الكتب لسوء الحظ  
على أشياء كثيرة لم يكن يلها وبين الحقيقة آية صلة .

نعم كتبت كتب ودونت رسائل عن السودان في الفترة التي تلت  
ظهور اليهود البريطان وكنها قالت أشياء تخالف ما جرت به الحوادث  
وبعبارة أخرى أن هذه الكتب وثائق الأسفار كانت محاطة بالعناية والرعاية  
ومثارة بالإيجاء والإملاء بعمل المبيعين على مجرى الأمور فثلثت الكتب  
وقاضت الأسفار بالظن والاشوبه وصب أقطع اللغات على الأثرالك  
والجلايين والنحاسين والأنصار والفراوش - أنصار المهدي ودواويش  
كأنما هؤلاء كلهم مخلوقات من طينة أخرى فكانوا في نظر أصحابها عصابة  
خفاه ونحو أنشأهم الفاسدون ، وما كانوا إلا رجلاً مثلنا من الآماء  
والأجداد - انحدرنا من أصلهم بل هم الذين أوجدوا ما في الأحياء  
من الأفكار والمشاعر وإليهم ترجع أسباب حركة أهل هذا العصر - فالأمة  
مصرية متأثر أمواتها أكثر مما هي مصيرة بتأثير أحيائها .

نقول أنه لا استيقظ الوعي القومي في مصر وفي السودان وأراد  
الكتاب والمحدثون أن يكتبوا عن الفترة من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٨٥  
لم يحسوا سوى تلك المدونات المفروضة بظهورهم وينقلون ما حوته بطونها  
بقامت كتاباتهم ملأى بالسياب - من حيث لا يشعرون - والخط من شأن  
أولئك الآباء والأجداد ثم صاروا يعدون أعمال المعتدين من الطلبة والطغاة  
كأنما هي أعمال انسابية تدفع أصحابها الرأفة والرحمة بيني الإنسان فكانت

معرفتهم بالسودان مستمدة من الكتب التي نشأوا وشبوا عن قراءتها حسب  
ولم يكن مجرد منع بيع الرقيق وجلبه ومصادره في أعالي النيل المأثمة  
لتي أثارت السودانيين ، بل الذي أثارهم وسود الصياء في عبوديته هو  
مصادرة الرقيق المولود والموجودة في حوزة أسياده . وهذه المصادرة أصبح  
لسودان بمثابة عربة بدون عجل أو كطير بلا ريش - فقد حل الحبس  
ما كنا مدة وجود صموئيل بيكر في خط الاستواء وفي أثناء مأموريته  
غردون كذلك ولكن بمجرد أن صار تصيب غردون حاكما تاما من سنة  
( ١٨٧٧ إلى سنة ١٨٧٩ ) بعد أن كان حاكما وحسب على مديرية حلف  
الاستواء . لم يلبث أن عانى السودانيون عن اختلاف طرائقهم من  
الاضطهاد والشدّة والضيق والجوع والفقر ما لم يسبق له مثيل في كافة  
العصور وذلك بفضل أساليب العنف والشدّة الصارمة التي اتبعها غردون  
من أجل تحصيل الضريبة أي الضريبة ومن أجل القضاء على الرق والنخاسة  
بالبعب والنار في ربوع السودان .

وإذا جاز لغردون وصناعته من الأجانب قلسبيان الزبير وزعماء  
غندا في بحر الغزال ومارون الرشيدى في دارفور والصباحى في كردفان  
وقبيلة سام في النيل الأبيض بتهمة أنهم عصاة أو متمردين أو جلابة  
من تجار الرقيق ، فما ذنب النساء والأطفال ؟ ما ذنب البنات والبنات  
الذين قتل آبائهم ورجالهم ؟ ما ذنب هؤلاء حتى يساقوا ذرافات من دارفور  
إلى كردفان سوق الاغتنام حفاة عراة - وأى قانون وأى عدل يسرع  
لمثل غردون وصناعته من غلاظ القلوب أن يعملوا على اقتار البيوت

من أهلها وانتم اك حرماتها كما فعلوا في دارفور وغيرها من البلدان  
 رأى العرب - عرب السودان - بعدما دهمتهم المصائب وتوالت  
 عليهم التوائف فهم وصلوا إلى حالة من الخطر لم يسبق لها مثيل في أحر  
 الأزمات فإبشوا أن لموا شعنتهم وصحروا بما أصابهم من الذمور ثم وثبوا  
 وثبة الأسود دفاعا عن كيانهم وكيان أمنهم مفضلين الموت في سبيل الحياة  
 على موت أذلا. مهابن

وعنى ذلك فقد يجمع غردون في إيجاد الثورة بما هبأ لها من بواعث  
 وقدم لها من موجبات ولولاه - أي غردون - لما كان المهدي على حد قول  
 ( سدي لو ) في كتابه « مصر في دور الانتقال » إذ بعد أن نعى ( سدي لو )  
 على غردون تسرعه في محاربة الرق واندفاعه الجنوى في إبطاله دورا دون  
 إهمال كتب ( في صفحة ١٨ ) مانعه :

« لا شك عدى في أن الحرب الصليبية التي شنها غردون على الرق ،  
 « بلا مراده . كانت الوسيلة المفضية إلى الغرض المقصود : وهو قيام ،  
 « الثورة ضد الحكم المصري . فلولا غردون لما كان المهدي ذلك أن غردون ،  
 « ما أبى أن أضاف إلى الاستياء سائره من تصرفات موطنى الخديوى ،  
 « تصديه متعمدا للمصالح الخاصة ، اندفاعه الجنوى ضد حيازة الرقيق ،  
 « بما يعتبر اعتداء على الملكية الذاتية في أخص خصائصها وأقدس أمسيها ،

وفضلا عن ذلك فقد عنى ماظهر هذه الحقيقة أحد معاصري غردون  
 وعن عملوا فترة من الزمن تحت إدارته هو الضابط الأمريكى شاليلونج  
 بك في كتابه « مصر وأملها الضائعة » ،

« إن أقاليم مصر الجنوبية قد سرقت من مصر لأسباب في غاية »  
« الخطورة والأهمية ، ومصر لا تستطيع أن تتحلى عنها وإن لم يعد »  
« القول مكرراً بأن مصر . دون غيرها . هي التي يتوفر لديها - داخل ،  
وحدودها الخاصة - شعب يصلح صلاحية تامة لخدمة هذه الأقطار ،  
« الأفريقية وإلى هذا الشعب - لا إلى القبلات الأجنبية - يجب أن ،  
« يتجه عاهل مصر وكل محب للجنس البشرى . »

« وإذا شام العناية الإلهية أن تسعد أقاليم أفريقيا الوسطى ،  
« بوسائل السابفة فإن هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة الشعب ،  
« المصري وعلى يده وحده يقوم الإصلاح . »

« حتماً أن السودان لا يهدأ به قرار ، ولكن هذا الفلق ليس إلا ،  
« شبحاً لا يلبث أن يختفي غداة جلاء الإنجليز . . . فإن بقاء الإنجليز ،  
« وحده - في مصر - يكفي لتخريب هذا الفلق . »

هذه الحقيقة التاريخية التي نشرها أمريكي محايد عذب الاحتلال  
الاسكندري لمصر والسودان - بفترة قصيرة - لا تزال تلفت النظر بعد  
مضي نصف قرن تقريباً كأنما قد قبلت بالامر فقط .

ولاجل اتمام البحث واستكماله وتناوله من جميع أطرافه ، رابت  
أن أقدم الكلام عن الحكم المصري المعروف « بالتركية السابقة »  
عن الكلام عن بواعث الثورة المهدية : لأننا إذا اغفلنا ذلك  
وتسكنا عن موجبات الثورة ودوافعها . كما استبقنا من اقواء أهل  
السودان . نكون كمن بدأ يشهد تمثيلية بعد أن فاتته منها بعض  
مصولها الأولى

ولا بد لي في الختام من ابداء كلمة شكر واجلال اوسعهما إلى المؤرخ الطائر المصنف العلامة الدكتور محمد فؤاد شكرى أستاذ التاريخ بجامعة فؤاد الأول لمتنله على بتقديمه جديتها ولادة في جريد هذه ابرسه . وقد ضاعف حملة بما أسدى إلى فيها من الشئ . وما أدهاء من الحمارة برمالتي بما أملاه عليه جميل فضله وخائص حبه للسودان وأدله وأن مكاتته السامية في عالم التاريخ وشهرته الماتعة في أندية الأدب تزيد إلى ذلك الفضل جمالا وهذا العطف إجلالا .

وأقهرى أمانى أن تتحقق آماله وأمالى في مستقبل السودان وأن تتم الوحدة بين الشطرين للعمل على غنى بجيل يشمر بالحياة الحرة متمشيا نحو المظلم الخطير مع التواميس الطبيعية على ادماج الوادى من الأسرة المنحضرة العالمية .

وبما يتيسر لي أن اعترف بالارشادات القبية التي لقيتها من أصدقائى الأفاضل حضرات الأساندة محمد على محمد وكيل الرى المصرى في السودان ومحمد خليل مترجم تركى الديوان ابداءى وحسين منصور بجمع فؤاد الأول للغة العربية كما أشكر اصدقاءى محمد افندى عبد المنعم أمين محزون الإمتحانات بوزارة المعارف ما بذله من جهد ومعرفة صادقة في تصحيح البرهقات وإعدادها للطبع . جزاهم الله عنى خير الجراء .



## الفصل الأول

### التركة السابقة

« فتح السودان شاء على دعوة من أهله من سودان  
، من وأهله وحدة مشتركة تقسم السودان لمصرية  
واخصرة والعراق ، شرق الأديب في الحكمة »

يسمى السودان المدة التي سبقت تدخل الإنجليز وفيها الثورة  
المصرية ، عصر لتركة السابقة ، وهو يندى ، من عهد محمد علي باشا إلى  
عهد توفيق باشا

ولم تكن الأسباب التي أفضت في جوهرها إلى ضم السودان لمصر  
طالب المنفعة أو مجرد التجارة أو السيطرة وتشويه أو الاستغلال بل  
كانت للروابط الطبيعية والحيرية والقومية أساسية وروابط اللغة  
والدين والدم هم الأسباب التي دفعت محمد علي باشا دفعا لفتح السودان  
وإخضاعه بأمره المصرية .

على أنه توجد إلى جانب ذلك أسباب أخرى هامة هي أن حكومة  
سندركان يدمها الحبل والقوضي و لفساد حين داك فأوعزت إلى الملك  
نمر أن يطش بالملك بشير عمدة بلاد الجعليين فلما أدرك الأخير أن لا  
يحيط من دلا كهو نزاع الرئاسة من أهل بيته فر إلى مصر عن طريق

عظموه أبو محمد وذلك في أواخر ١٢٣٢ هجرية لاجئنا ذلك لأنه ليس  
للسودان مدخل ولا مخرج خلافاً مصر فهي حصن السودان الذي  
يحتجى فيه المحتامون ويأجئون إليه هرباً من طغيان الطغاة وعسف  
المنسفين.

وكان محمد علي باشا قد علم بقدره الملك والملك بشير واد عميد  
منذ حلوه في الحدود المصرية وروى جماعة من حاشيته لأقائه والترحيب  
به باسم الحكومة المصرية وكانت مقلة باهرة شائقة طارحاً بشير  
وأبناءه فرحاً فقام من بينهم رجل يشد الأشتد بلعة السودان المحكية  
وأشد كلاماً مدح فيه الملك بشير وهنا مصر قدومه فقال :

• ولاك مهور ولاك مهور : وسأكت بطر جيت شاكى

• وكم قلبا كبير منك بيص ويكاكى

• سلام عليك يا مصرنا نعزيرة

• الليلة مكنا جاكى . .

ونسبها أن المادح يقول للمدوح : لك إلى حين خروجك من  
بلدك ثم يصيبك قهر من أحد ما ولا أنت كحد ولكنك حنوت من  
وقوع ذلك فحمتك شهادتك وعرة مسك على أن تتوفى صيا وربما  
استهدفت له نفسك لكرية في المستقبل وأنت طالما قورب عدوك في  
مبادئ الحرب حتى أنه كان يستعيت من بأسك وصيح كاندجاجة عندما  
تبيض وقد استقلت مصر : يلبق لذلك من الإكرام والاحلال ولا  
غرو منها البلد الأمين العزيز المشهور وإلى ملكها المنقب بهزير  
ونخطب منه اخبراتها تحت لواء ملكه السعيد .

وقيل أن هذا الكلام سر للمنفور به محمد علي باشا بالتفسير  
الآلاف المذكور سر سرور، عتيا وعمر الوغد ولأسيما رئيسه بصتوى  
الحمولة وشكرهم .

وبعد معاوضات طويلة لب أهل مصر دعوه الأربعة وأدى رساله  
إشمامة نحو أثناء الوادى من أهل الجنوب خير أداء . ولما أن كان متغى  
محمد على الخيرى المحض البجرد من فساد النية والمثله عن مظالم النفس  
كما أثبتته الحوادث فرأيه على إنقاذ حملة مؤلفة من ٤٠٠ رجل من  
المساكر إلى السودان عن طريق دنقله بقيادة ولده الباسل الأمير  
إسماعيل باشا وأخ عليه بأن لا يأتى أمرا بعير مشاورة رفيقه الملك بشير  
ودعقيد فسارت الحملة وما بلغت أرض النوبة حتى تلقاها السكان  
بالخضوع والخضاعة وعندما بلغت دنقلة الجنوبية أبدت قبيلة الشاذلية  
مقدرة شاهرة انتهت بانتصار الجنود المصرية فى معركة كورنى ثم تابعت  
سيرها حتى بلغت الخرطوم وخضع لها الملك ثم عدو دليل الحملة  
أدك بشير .

وقد أكد معاصرو هذه الحوادث من أهل السودان ومن نقل عنهم  
أن محمد علي باشا كان يكتب إلى ابنه الأمير ورفيقه الملك بشير كتابا  
واحدة وقد اقسم فى كتاب منها بأنه لا يفصل أحدهما على الآخر وأنها  
سواء عنده فى الحنان الا ترى وختم كتابه بقوله : وهذا حكى على جميع  
رعاياي المخلصين .

وبعد فتح عماركة الحج بخدا فبرها قام البتردار من أسوان بنحو

خمسة آلاف جندي إلى كردغان عن طريق دنقلة وكانت كردغان يومئذ  
تابعة للملك دارفور فأخضعها بعد إقصاءه على صاحب الشأن عليها  
الأمير مسلم بن ورقعة بارا وبعد أن أخضع إسماعيل فازعى وأستتب  
له الأمر في سائر شخص إلى مدينة شندى الواقعة شمال الخرطوم وأزل  
ضيقا على الملك عمر وكان عدوا لعمليك بشير كما أسلفنا ويتبعه بعضا كلما  
رأى فوز عدوه وما وصل إليه من مملكته الرقيقة في الحكومة وما تقرر  
جمع الخراج وطالب الأمير الخراج فتظاهر بالقبول والموافقة ولكنه  
أصمر في نفسه السوء وبعد أن جلس معه حتى انقضى الليل وانصرف  
الناس إلى مصاجعهم عمد النمر إلى إسماعيل الذي كان قد  
جمع حول المنزل فقتل إسماعيل احتشاقا ومات معه مائة غلوك وفر النمر  
إلى بلاد الحبشة حيث مات بها. أما أهله وذراريه فمدعى عنهم محمد  
على باشا في أحر الأمر فعادوا وسكنوا القصر — وقد شق على محمد  
على باشا أن يعدم ذريته كما عزم ولده وحرص الباشا على إبقاء الحكومة  
الابوية الصالحة التي ترى شئون السودان وتمض ببلادهم إلى مصاف  
الأمم المستحضرة وآية ذلك تلك الإصلاحات العظيمة التي تمت على  
على أيدي حكمداريه فكانهم في العصر شفيق. وقد كان السودان بين  
الحكم المصري يتألف من عدة أقاليم مختلفة ومشاحة بعضها مع بعض  
تعيش بها قبائل وبنات مبيتة ولا يربط بينها رابطا ليكن منها وملك  
أى وملك يحكمها حكم أسديادها فكانت الشوخي والحروب منتشرة في  
السودان وتجري بحرى لعادة بين قبائل والعشائر

فمع أن القبائل كانت تتجاور أحيانا فإنها كانت تعيش وكل قبيلة منها في حدودها سبرها ، أى في حدود عاداتها التقليدية الموروثة : هذه قبيلة تمارس الزراعة وأخرى يتجاورها ولكنها لا تزال تجمع الطعام جمعا بما يروق لها من وسائل أخرى فلا تنكس نفسها مشقة الزراعة وهذه قبيلة تحرم بعض الطعام بين محله قبيلة أخرى يتجاورها وهكذا . فمع أن الجميع يتجاورون ويختلطون بعضهم بعضا إلا أنه كان لكل قبيلة سبر يتبعها تحب أو تكره ما لا يحبه أو يكرهه غيرها .

قامت حكومة محمد على بالقضاء على هذه التناقض وأقامة حكومة منظمة ربطت إجمالا بين الجميع في وسائل عيشهم وطرائق حياتها . ثم قضت على تلك الموضى الناشئة وأنشأت نظام إداريا من الطراز الأول على عرار ما كانت عليه مصر حيث قسمت السودان إلى مديريات وجعلت على رأس كل مديرية مديرا ونسبت المديرية إلى مراكز على كل مركز مأمور من أهمها يستمر ساجدة من مدير المديرية وقسمت المراكز إلى دحلان ، أى فرق على رأس كل حلة شيخ كرئيس دسى مسئول أمام الحكومة ولكن لهذه الأنظمة أثر كبير وجاءت خير شاهد على ما تم من اصلاحات غرضها تصدم أهالى السودان ورد همتهم واثارت في نفوسهم الميل إلى الحياة المستقرة فضلا عن ذلك فقد ساعدت الحكومة الأهالى على بناء دورهم ، بالجائوس ، والطين والطوب والاحشاب بدل لقس والغاب . ونمت الزراعة فمكن كل مواطن في مكان لا يبرحه وأصبحوا مرارعين لهم مساكن مستديمة بعد أن كانوا بدو يرحلون

من جهة إلى أخرى وكان يمثل الحكومة في مختلف النواحي شيخ الحنة الذي يرجع إليه في المنازعات والمشا كل المحلبة .

وأحضرت الحكومة من مصر إحصائيين من العمال لتدريب الأهالي على الزراعة والصناعة . وأحدثت زراعة القطن وحاجه وأنسجه إلى دمور تنمو وتزدهر وزدعت النيل والكثبان والنبه وأسست مصانع ميكانيكية للسج وأحواضا وخوابى للصباغة واستخراج الأصباغ النبانية كما استخرج الألوان المعدنية ، كالخرته ، أى كسيد الحديد شبيت الأصباغ وهى المعروفة في مصر بالزاج الأخضر وما تزال آثار هذه المصانع باقية إلى الآن في كلا وسنار وكر كوج وشندي والجنتارف وليجراوية والكاملين ورفاع وغيرها . وكانت مصر تصدر سنويا ما يقرب من ثمانية ألب رطل بلة للصباغة تصدر للخارج وذلك قبل اكتشاف الأنلين . فسارت البلاد قدما في سبيل الحضارة ، وتتقدم كما أنشأت الحكومة المصرية مدارس ومعاهد للتعليم وكان رعاها بك أول اخبر للمدارس السودانية قبل أن يكون ناظرا أو وزيرا للمعارف المصرية .

وما يدع عن أن الحكيم في السودان كان حكما مصر يا سودانيا عادلا من بداية باعتبار أن مصر والسودان نطر واحد ضمن نطاق مشترك حتى النهاية ساد فيه الأمن والاطمئنان وكثر الخير وعم الرخاء وتساهى الناس في الحقوق حتى أن العامة صارت تترحم بالفرل المأنور وتتنى بهصر هيمون سعيد .

« انترك عشوئا الحديث ولبسونا القميص »

« هناري باقاصي اسلاري التي عرب اشجر أصبح تركاوي »

وصار الخاكم انتركي كما كان يسمونه يحارب البلاد من أقصاها إلى  
أقصاها بدون حرس يحرسه أو يحميه بل يستنفس أينما حل ضحا كرمها  
بالخشاوة والترحاب

١٨٥٧

وفي سنة ١٨٥٧ سافر سعيد باشا لزيارة السودان وكانت زيارة  
مرافقة ومشاركة ذلك بأنه أمر بإجراء إصلاحات هامة منها أن تصبح  
الخرطوم ومديرية سنار والجزيرة مديرية واحدة على أن تكون كل  
مديرية منفصلة عن الأخرى وترجع في أحكامها إلى والي مصر وهذا إلى  
جانب تخفيض ضريبة الاطيان الزراعية وضريبة السواقي ومنع أخذ  
من جمع الضرائب وإتاغة ذلك بمشايخ الحلال بعد الحصاد لا قبله وقد  
أمر سعيد باشا بمقعد مجلس في الخرطوم للنظر في راحة الأهالي من سوء  
وحضر يتألف من جميع المديرين وأعيان البلاد ومشايخها هذا إلى أنه  
ألقى الضرائب المتأخرة وسن القوانين بمنع الضرائب وأمر باعتناء  
ومركاء لكل مزارع يده ما جعل عليه من الضرائب على  
أقساط في السنة وكما دفع نسط قيد ذلك في السركي يده كما هي في  
يومية الضرائب وجعل من الأهالي مديريين ومأمورين ونظار أفسام  
ومعاونين بمرتبات شهرية من الحكومة وأمرهم لبس الملابس المشبعة

ثمهم كمثل الحكام ، لا تراك لا فرق بينهم ولا تفاوت ثم أصدر عفوا شاملا عن جنائهم ، امك عمر ، الذي أهدى من قبل في قتل الأمير اسماعيل بعد أن تبين له أن المؤامرة التي حيكت لاغتيال الأمير لم تكن من صنع عمر وحده بل اشترك في تديرها كذلك المماليك الذين عادوا مصر بعد هزاج القلعة وسافر اللاجئين إلى السودان ، فكان من أثر هذه الإصلاحات أن حسنت الأحوال وازداد الطمأنينة الأهالي للحكومة الأتوية الجديدة وثقتهم بها وحبهم لها . وكان بما زادهم يقينا في حديثهم ان حكومة لقاهرة ضلت بصفة ساهرة تأخذ بالشدة كل من حدثته نفسه من الحكام والمأمورين بالخروج عن الطريق المستقيم والدليل على ذلك انه ما أن أهدى ممتاز باشا أحد حكام السودان في عهد الخديوي إسماعيل بالظلم والرشوة حتى أمرت حكومته لقاهرة بسجنه في سجن الخراطوم والتحقيق معه فيما نسب إليه بواسطة مجلس مشكل من سودانيين ومصريين ولم تسمح له بخدماته النافعة في السودان الشرقي قبل موته ، فحسب احكامدارية ولولا ان عاجله الموت وهو في سجنه حرك وحكم عليه جزاء وفاقا إذا تمت إدانته .

وكان لملك الخطاة الحكيمة التي سار عليها الولاء والخديويون المصريون من أجل تدريب "سودانيين على الاضطلاع بأعباء الحكومة في بلادهم ، تبع الآثار في نهضة رؤساء بلادهم عن تحقيق الإصلاح المنشود واسترعت هذه السياسة الرشيدة أنظار المصريين الأجانب فسمروا سياسة اشترك العناصر الوطنية في الحكم والإدارة وهي



لياسة انى نسحبها نحن اليوم بسياسة سودنة لوطاتف .

فكانت الرتب والنياشين تتمتع لعمد البلاد وشار الاقسام وكبار  
الموظفين السودانيين من مديين وعسكريين أسوة للمصريين بل ربما زاد  
عدد حاملها من السودانيين على عدد هم من أعيان العالين المصريين  
تذكر منهم على سبيل المثال : —

بشير بك ود عقيد	عميد الجميلين
عبد القادر باشا ود الرين	شيخ مشايخ الخرطوم
إدريس بك ود عدلان	زعيم الفوج وأول معاون للحكمدارية
عنى بك البخت	ناظر مبنى تاجر
احمد بك أبو جن	ناظر اخدة
محمد بك موسى	ناظر اعدى دوى
عبد النادر بك إيله	ناظر الخلافة
محمد بك إس	ناظر كرددان
احمد بك دفع الله	عين من أعيان كرددان
سوص المكرم باشا أبو سن	ناظر الشكرية
احمد باشا أبو سن	ناظر طار الشكرية والدوايمة
بكوم بك ( مك د ملك ، قيلة الشلك )	
على بك أبو سن	من الأعيان
حسن بك أم كدوك	ناظر البرنو

عني بك سام  
 محمد بك زايد  
 صليح بك شتق  
 أرباب بك واد دفع الله  
 قنوي بك واد بكر  
 ابراهيم بك الورديني

عني بك الحبيب  
 محمد بك البهلافي  
 محمد باشا زيد  
 صليح بك حليمة  
 قنوي بك ابو همدوي

ابراهيم بك الحجاز  
 محمد باشا امام  
 وكيل مديرية بربر  
 الشهير بالجدير

وغيرهم ممن مدون بالملكات وكان هؤلاء وأمثالهم من لعمد وانصار  
 ولرعا وكبار الصباط والموظفين القوم الفصل في شئون بلادهم بل  
 كل من الصباط والجنود السودانيين من اشترك اشتراكا فعبا في الثورة  
 العربية في مصر مما يقطع الشك بأنه لم يكن هناك تفرقة بين المصري  
 والسوداني ولا بين الأبيض والأسود من سكان وادي النيل وذكر  
 كدلت عن شعولوا لوظائف الادارية من ابناء السودان :-

إدريس بك ابتر	كمديرين و على التوالى ، لمديرية بحرالغزال
يوسف باشا الشلالى	
سليمان بك الزهير	
الشلالى باشا	كمديرين و على التوالى ، لمديرية
بساطى بك	استار ثم على مديرية كردغان
إلياس باشا أم برير	مديرا على كردغان
حسين باشا خليفة	مديرا لبربر
الطيب بك عبد الله	مديرا لفاشودة
محمد بك خالد ذقل	مديرا لدارة
السميد بك حسين	كمديرين لمديرية دارفور
آدم بك عامر	
احمد باشا ابو منه	
محمد بك احمد	كمديرين على التوالى لمديرية الخرطوم
احمد بك جلاب	
محمد بك الجزولى	وكيلا لمديرية الخرطوم
احمد بك مكوادر	وكيلا لمديرية سنار
عمر بك العمرانى	وكيلا لمديرية بربر
على بك عمار قابو من	مديرا للجمارك
محمد بك تلب	رئيس مجلس الاستئناف
محمد بك خوجلى	قاضى لمديرية الخرطوم

عثمان بك حبيب حاتم  
القاضي بخط الاستواء  
المعني الشيخ الأمين العزيز  
شيخا للإسلام  
أبو بكر بك الجرجوري  
من أهل تشورة

الحليف وأد ارباب  
محمد بك عبد الرحمن وأد مشير  
عبد الرحمن باشا بان التقي  
أفضل بك إبراهيم  
وأعضاء مجلس الاستئناف العالي

ونذكر من الرجال العظام أصحاب السمعة الحميدة والآراء السديدة  
عوض بك المهدي ( ولقب بالمرضي بعد ظهور محمد أحمد المهدي )  
وكان من الرجال العظام ومع أنه كان باشكاتباً لمديرية كسلا إلا أنه كان  
صاحب الكلمة النافذة والأمر المطاع في شرق السودان وقد اختاره  
المهدي أميناً بيت المال بعد سقوط الخرطوم فكان بمثابة رأس المسكرة  
ولد المديرية لشئون السودان مدة المهدي .

بساطي بك المحسني  
باشكاتب مديرية الخرطوم

حميد أفندي الشريف  
معاون بربر

أحمد أفندي العسكي  
معاون عربان ليندو ( وقد اعتقل سنة  
١٩١٤ وظل في أسر الإنجليز بفحص الليل في نقاهرة حتى اعتلت صحته  
وهزل جسمه نتيجة الأمر فأعادوه الإنجليز إلى أم درمان سنة ١٩١٧  
حيث استشهد إلى رحمة الله وكان أحمد الفكي مثالا للرجولة الكاملة  
وتشجاعة في الحق والكرم الخاتم والوطنية الصارفة حلو الحديث الطيف

المعاشرة ذكى الثؤاد سريع البديهة ويذكر إلى جانب كل هؤلاء يا سيكر  
بك واد السلطان وموسى بك واد يعقوب من أمراء القصارف والمهارة  
أما الرجال العسكريون من أهل السودان الذين بلغوا أسلا الرتب  
والدرجات ، فكانوا عديدين امتاز منهم بحبة في تاريخ السودان الحديث  
أزجروا خدمات جليلة لأوطانهم منهم .

الملاط بك	آدم باشا	فرح الله باشا
وفرح الدين باشا	ويوسف الشلالى باشا	وصالح باشا امك
والسعيد حسين باشا	وحسن ابراهيم باشا	ومحمد على حسين باشا
وحشم الموس باشا	والنور بك محمد	وسرور بك بهجت
وعبد القادر باشا الفحل	وبحيت بك تراكى	ومحمد بك السيد
وسليم بك مصرى	وعشرات سواهم	

وقصارى القول أن مصر حلفت السودان خلفا جديرا من جميع  
أرواحى وفصلا عن ذلك فقد ثبت نبوما قاطعا لاشك فيه أن اتفاق  
السودان كانت تربو على إيراداته طرأ عهد الحكم المصرى وأنه كان  
يحتاج إلى مبالغ طائلة لتغطية عجز الميزانية كل سنة ، أما إحصاء ما أنفقه  
مصر لإحصاء دقيقا من عهد محمد على باشا حتى قيام الثورة المصرية .. من  
مال ورجال فى سبيل تعمير السودان وتقديمه .. فأمر غير الملتبس وإنما  
من الممكن أن يقال إجمالا أن مصر وحدها يرجع الفضل فى إنشاء جميع  
المنشآت الفخمة والمباني الصخمة التى ما يزال معظمها قائما إلى اليوم مثل

المصالح الأميرية والمنشآت والمساجد والمدارس والشركات وهذا  
عدا مد خطوط السكك الحديدية وتسيير الوابورات البخارية انيلية  
والإكثار من المشاريع العمرانية النافعة في دنقلا وكسلا وغيرها وأن  
الترع انحصراء التي أنشأها سعيد باشا لتنهض دليلا على عناية الولاة  
والخديويين بدمار السودان وتحقيق الرفاهية لأهله . وامتد العمران إلى  
أصقاع السودان المائنة عندما صممت الحكومة مديرية بحر العرال وجعلت  
الزبير باشا مديرا عليها وكان في عهد الخديوي اسماعيل أن مدت أول  
سكة حديدية عرفها السودان تكلفت مبالغ جسيمة دفعتها مصر عن طيب  
حاطر على الرغم مما كانت تعده وقد نال من ضائقة مالية شديدة . ووضع  
في عهد الخديوي العظيم أضخم مشروع لإنشاء شبكة من الخطوط الحديدية  
لربط أطراف السودان من جهة ودرط شطرى الوادى الشمالى والجنوبى  
بعضهم ببعض من جهة أخرى .

وفضلا عن ذلك فقد أنشأت ترسانة كبيرة لصنع البواخر والمراكب  
النيلية وتصليحها فبنت الترسانة هذه الرايات البخارية الآتية أسماؤها  
تل حوين — فزير — التركية — المنصورة — العشر — بورس  
الاسماعيلية — عباس — شين — المليية — الحسنية — نازا  
محمد على — السلطان — الخديوى — وذلك غير أمثال والوابورات  
الصغيرة الأخرى .

بما مدم نرى أن حكمه و التركيبة السابقة أو بالآخرى حكومة

الوحدة المشتركة استعماعات أن تسير بالسودان في معارج الرقي والتقدم  
من عليه زمن والسودان يتقل من طور إلى طور ويحطو إلى الامام من  
حالة إلى حالة أفضل منها حتى وصل إلى درجة من السكالك بمحمد عليا .

وقد يكون من الشائق أن نعرف شيئا عن عاصمة السودان في  
السنوات السبعين في القرن الماضي في الوقت الذي بدع فيه السودان أعلا  
مراتب التقدم والرقي في عهد الخديوي اسماعيل ومدات تتحرك أطماع  
الدول في التغلغل في قلب القارة الافريقية واستعمار هذه الأصقاع البعيدة .  
فلما محمد طاعت في كنهه (غرائب الرمال في فتح السودان بصف وصولة  
إلى الخرطوم عند خروجه من مصر مدحقا بخدمة الحكومه في القصر  
الشفيق في غضون عام سنة ١٨٧٥ : فالتفتنا إلى ساحل الخرطوم في  
غروب يوم الأحد ٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٢ ( ١١ ابريل سنة ١٨٧٥  
وفي صبحية يوم الاثنين حضر إلينا معاون الصبطين وأرشدنا إلى عن بقائنا  
إليه متاعا ثم توجهوا إلى الحكمدارية وسلمت لإفادة ادليه فأمرنا أما ومن  
معي بالانتظار حتى يتم إعداد الجبال اللازمة لسفرتنا عليها إلى كردفان ولا  
بنعي القاري اللبيب أن طول المسافة قد أدهشني جدا وأن الثلاثة أشهر  
لتي استوليت على استحقاقها متنتهي قبل أن أبلغ الماركر ادى تعينت  
لأجله وفي هذه الحالة شمرت بأنم المرافق الحقيقي فاستخرطت ن البكاه  
وسكنت الدمع مدرارا عن فرق حبيبي وأهلي و بعد انصرفنا من الحكمدارية  
أخذنا نطوف الخرطوم التي هي عاصمة بلاد السودان ونحط رجال تجارتها  
فاذا هي بلدة حسنة الموقع جميلة المنظر نحيما أمواج البحر الأزرق  
والأبيض عدو ورواحا ويوجد بها من الجملة الشمالية المشرفة على البحر

الأزرق كثير من النساتين المستمرة الشائفة والمصور البادية لشاذقة حتى  
لقد يعثرى انقادم على هذا المظر البهيج حيرة لا يكاد يصدق معها حقيقة  
ما ينظره أو يرى أنه قادم على أجل به وأعظمها تمدا وحضارة ولا  
غرو في الخرملة كانت نحو الأول لاشغال الحكومة المصرية في  
أواسط إقليمية ومركز تجاره السودان ومحطز حال أعظم تجارة وعاصمة  
بلاد فسيحة الأرجاء واسعة الأطراف كثيرة الخيرات جوية التبركات  
تراها نهر وحماها در ويسكن الخرملة حتى كثير لا يقارن عن مائة  
ألف نسمة وبها أيضا كثير من الإفرح لكن الجنس اليوناني أكثر من  
غيره لأن كل إيقالين (ألبانين) هناك يوتايبو التبعة وما بنى منهم  
يشغل بالاجارة غير أن الجنس الامكليزي وإن كان متظاهرا استغاله  
بالانجار كباثر الاجناس إلا أن ذلك لم يكن إلا بصفة اسمية فقط أو  
هو وسيلة بلوغ غاية كاملة في يوم من أتم تلاميذ والله أعلم ولم يكن  
العرض من كذا في هذا إلا شرح هذه الغاية كما سيوضح جيب لكل من اطلع  
عليه حيث يحاد الثام ويكشف القاب ويظهر المعنى فتصح الحقيقة  
لأناء وادى الليل ويقموا على كنه ما جره إليهم الإهمال والفعل مما قضى  
عنى سرداهم بالموضى وعنى إخوانهم الدين كانوا به لإدارة شؤنه  
وتنظيم أحواله بالموت وعنى تجارهم اتى كانت رابحة سائدة في تلك البلاد  
بالكساد وهي مصائب جنتها أيدينا علينا بما استمرتنا به شياطين المسائل  
ونستق رأب البعة المذكر والخداع وسترى أيها القارىء مفصلات هذه الحلات  
في أبوابها بأحق بيان وأوضح برهان وليرجع الآن إلى ما كنا في صدد



ويوجد في الخرطوم كثير من الشوارع المنتظمة وعلى جانبيها قصور مشيدة  
ومنازل جميلة تسر الحاطر وتقر الناظر وهذه الشوارع تنكس وترش  
صباحا ومصرأ وهي لا تقل في نظافتها عن شارع محمد علي وشوارع درب  
الجاميز بمحروسة مصر وفي ثلاث مدارس إحداهما للحكومة وهي كبيرة  
كاملة المعدات تحت التربيب والانتان الآخران صغيرتان إحداهما  
للجزويت والأخرى للأقباط أما المكاتب الصغيرة (الكتائب) التي يدرس  
بها القرآن الشريف فهي بما لا يدخل تحت حصر وبها أيضا كثير من "تفاهوت  
منها ما هو على شاطئ النيل الأزرق ومنها ما هو داخل المدينة وحدها  
متخلعة ومبشرة تبيض أجبالا وأراضبها مكسوة بألواح الخشب وقد عاقت  
على جوانبها الصور الجميلة إلى غير ذلك من وسائل التربة وبها جميع  
ما تشتهى الأنفس وتلك الأعين من المأكولات والمشروبات فضلا عن  
أنواع الألعاب والملاهي كالبليارد والشارنج والرود وغيرها مما لا يقبل  
عن مافي مجتمعات مصر العمومية وبأجملة فالخرطوم مدينة قد توارثت بها  
أسباب المدنية وكمالات وسائل العمران وسكانها على جانب من النظم من الرقة  
ودمائه لأخلاق والكرم والتجدة فاقنا بها خمسة وعشرين يوما أخذنا  
فيها حظنا من الراحة واتممنا لوائزم لسفر ثم انتقمنا من الخرطوم إلى أم درمان  
وهي واقعة على الشاطئ الغربي للنيل الأبيض فوجدناها شجرة عن  
مكتب تلفراف وبعض اما كن حاليه من السكان وقد خصصت هذه البقعة  
لإقامة الواردين من داخل السودان الغربي والمترددين عليه وقد خيل لنا  
أن جميع عساكر مصر قد نقلت إلى هذه البقعة لكثرة من بها من الجهادية

وعساكر الياشبورق أقامت ثلاثه ايام حتى جاءتنا لإبل وقد أبقتنا عند رؤيتها اتنا هالكور لا عناية لشاعة منظرها ولا لها متاعية في الطول والارتفاع شديدة السواد لم يستبق لنا من قبل رؤية ما شاكلها وفي يوم الاثنين ٥ ربيع الثاني سنة ٩٢ ( ١٠ مايو سنة ١٨٧٥ ) علمونا تلك الإبل وازمعتنا السير .

وهذا اقتباس من أقول سلاطين باشا تدلا عن كتابه ( السيف والثاد في السودان ) وسلاطين باشا - كما هو معلوم كان حاكما لدافور مدة التركية السابقة وأسيراً بديتو ومدن عام لحكومة السودان من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩١٤ ويعتبر حجة ومن أعرف الناس بأحوال السودان :

« لم يكن السودان تحت حكم مصر على مثل ما أصف من شدة عى ،  
« الأوربيين ولم تكن نحن الغربيين نتصهر من آمثال تلك المظالم فاهى ،  
« إلا عشر سنوات منذ وقع السودان في قبضة الماهديين حتى شهدنا ،  
« المظالم ترى والنصف يتولى وإنه ذن الحق أن أصرح بأن السودان ،  
« طرأ أكثر من سبعين سنة - مد دخله محمد على تحت حكم مصر والمصريين ،  
« فكان من ذلك العهد الطويل مفتوحاً للجميع ومستعداً لقبول كل جديد ،  
« تآقى به المدنية ويدعو إليه العمران - تحت حكم المصريين انشر ،  
« التجار المصريون والأجانب على السواء في مدن السودان الرئيسية وفي ،  
« الخراطوم ذاتها كان للدول لأوربية العظمى ممثلون يحترمون من الجميع ،  
« وقد كان الأجانب من جميع الدول الأوربية متمتعين بحق الدخول إلى ،

• السودان والخروج منه وهم في كل من تبتك الخائنين على أنهم مايتنون ،  
 • من أمن ومخدوع وسط رأى جواب ذلك سهلت المواصلات بين السودان ،  
 • وأبعد الممالك الأوربية بواسطة الرسائل لتأخرافية والتريدية المنظمة ،  
 • إن أعظم ما تمنع به السودان أثناء الحكم المصري الطويل هو قبحم ،  
 • كل فرد بشع ثمره لندبية وبشرتهم حسبا يوحى إليه صميره فكنت ،  
 • ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين في أماكن قرية يقصدها ،  
 • أنشأوها بمطاني الحربة وفي دسوء واضمتن كما كنت ترى مدارس ،  
 • المسيحيين الأوربيين منتشرة لتعليم العنوم الحديثة لافرق في ذلك بين ،  
 • فلسفة منها واندينية والعنبة المخبضة . كانت المناطق للسودانية ،  
 • متطورة بقبائل مختلفة وكان العداء في كثير من الأحيان شديدا بين ،  
 • رجال القبائل ولحسن حزم الحكومة المصرية أدى إلى نشر السلم بين ،  
 • اسودانيين على وجه عام سواء كانوا في ذلك راضين أم مرغمين ،

وسخط ملاطين باشا سخطا عظيما على حكومة المهدية ثم اضطرد

فكان : —

• إن أول ما يتبادر إلى ذهن من يفكر في شؤون السودان بعد قيام حكم ،  
 • المهديين هو مصير المدنية الناشئة الجديدة التي وجدت في بني حكم ،  
 • المصريين منذ حكم محمد علي فليس من شك في أن تغيير الحال وحلول ،  
 • القومى محل النظام بولدان في العقل شعورا صادقا بالقضاء على كل أثر ،  
 • طهر لندبية في السودان قبل المهديين وهذا ما حدث بالفعل بعد اندثرت ،

« مدالم المدنية رغم طراوتها وحسنه. ولسبب الرئيس في إقناعها هو »  
 « انتصار الحكم إلى أولئك المستبدن الجبهة بل أذهب إلى أكثر من »  
 « ذلك ، فأقول إن سبب ضياع المدنية راجع إلى ظهور نفوذ أولئك »  
 « الحمجيين الذين أسسوا على إقصاء الحكومة السودانية المصرية »  
 « السياسية نظاما جديدا كان إلى حد ما متبعا حضرات تنظيم المصالح »  
 « في العرص ولكنه خالفه في الجوهر فبدلا من الحق والتعدالة والأخلاق »  
 « في حكومة العهد المصري نجد الظلم والباطل البربري والتجرد من نظم »  
 « الأخلاق في حكومة المهديين وأتباعهم وأنه لمن الواجب على أن أقر »  
 « لتقراء غير مدوح في ذلك بزعنة التآمر لتعفى بما قاست من ويلات ولكي »  
 « مدفوع بوازع الضمير رغبة في تقرير الحقيقة كلها » « أني أن أستطيع »  
 « ذكر أمة ضلت في حياة مدنية أكثر من نصف قرن ثم هبطت إلى »  
 « أدرك الأسفل من الحمجية عبر السودان »

واستطرد سلاطين باشا في ذكر نصائح المهدية ثم قال :-

« إن الذين يربون في دراسة حائه السودان الحاضرة مزمون قبل »  
 « أي اعتبار آخر أن يدركوا بأن السودان اليوم ليس هو ذلك السودان »  
 « في أيام اسماعيل باشا عندما تجلت المدنية بواسطة نفوذ الحكومة »  
 « المصرية في الوقت الذي كانت فيه يتقاع والام المدنية المجاوره »  
 « للنفوذ المصري أما في ذلك الحمجية وأما عائدة للاوتان حيث لم »  
 « يستطع الأوروبي صمان النجاء لنفسه إذا اجتاز أحدها غلابة على أن »

• جميع الأوربيين لم يكونوا معروفين وشكك حتى دولة واحدة .  
 • من المفارقة الأوربية معروفة لدى الأمم المدة كدولة كما أن العرب لم يظهروا .  
 • في غير القليل لنادر - كان السودان إذن ذممة تلك البقاع والضمير عن .  
 • جميع ما جوره تاله من مدينة ونهوض وكان ذلك كله في العهد .  
 • المصري ولكني أقول كما است قبلا ، أن الجمعية تطرقت إلى جوانبه .  
 • عندما جاء عهد المهريين - كان السودان على مفار مذكور من المدنية .  
 • وتوض فأنصح مكدود متجسدا في طرقات الجمالة والظهر بعد أن .  
 • أنيت مقاليد الحكم فيه إلى قوة هجبة وحشية تكره لتقدم النظام .  
 • وتجدد الكذب والأرياء .

وبحسب أمام ذلك كله لا يكون مبالعين إذا قلنا أن السودان عرف  
 مدة الحكم المصري عصر افريدا من عصور العظمة والأزدهار ولم تقصر  
 مهنة السودان على "نواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فحسب" .  
 بل شملت هذه النهضة الناحية الفكرية كذلك - مكان عهد التريكة  
 السابقة ، فتحا جديدا في تاريخ الفكر السوداني إذ استيقظ الفكر  
 السوداني في ذلك العهد من سباته فتحرر من كابوس الخيالات الأولى  
 التي تشبه هديان المرضى وأوهام الأطلع والنفس عن نفسه ما كان  
 يساوره من نزاع وضع إزاء مشاهد طبيعة وأحداثها .

فبعض انتشار التعليم وإنشاء المدارس ودراسة العلوم الفقهية  
 والرياضة وفضل تعيين الأهليين في وظائف الحكومة الإدارية والكتابية

وبفضل إرسال البعثات للخارج صارت تتسابق الناس إلى دور التعليم  
والتدرب إلى العلماء والفقهاء . ولم يصب الحال عند هذا الحد بل أُنشأت  
الحكومة دورا للهندسة والتعليم الميكانيكا والكهرباء لسد حاجة الترمانة  
أثر ذكرها ومدارس للفراف فتحقق للسوداني عن وعي وشعور أنه  
هو المسيطر على مشاهد تكون كله ، بن عرف أن له عينا يرى ، وأذا  
ليسمع ، ويدأ لعمل ، وعقلا يتدبر ، فصار الفكر يتعاون مع اليد في  
إخراج النصف المعدنية المديقة التي تراها اليوم في سوق أم درمان وبفضل  
وفرة الخيوط والمنسوجات القطنية والحريرية المحلية حبكت الأثواب  
المحرفة بمختلف الألوان في السودان مثل « الفرقة » و « السرة » ،  
« تيورصة » ، ولتروصيص ، التي يستوردها السودان في الوقت الحاضر  
من الهند وبنقده ودرار والقاهرة بعد أن كانت تصنع محليا بيد أهالي  
السودان — وعلى الرغم من هذا السجل الحافل قانتا لم نذكر في الحقيقة  
حسنت الحكم المصري بأكملها بل تركنا هذا السجل الحافل على ما أخرج  
من رجال مباهين بمجرد من أصلاهم أبناء الجيل الحاضر دون أن  
نعتبه ما يستحقه من طلاء حلاب بل اقتصرنا على ترديد ما كنا نسمعه  
من أهواء أبنائه أنفسهم وهم رجال عزاز علينا من أهل السودان ما زالوا  
يذكرون عن أجدادهم وآبائهم ما عرفه هؤلاء عن ذلك العهد المجيد بغابر  
ويقتلون عنهم حديثا هو الحق فيما يعتقدونه من كل هذه الأمور .

ومع ذلك هناك سؤال لا مندوحة عن محاولة الإجابة عنه ، سؤال

جد خطير ماران بحوں بحواضرنا وتشغل معرفة الحق فيه أذهاننا جميعا. إذ  
انه رالحان مذكورة فما لاسباب إذن التي اوغرت الصدور صد و الترتيبه  
السامة، وصدحكامها ؟ وما وراء هذا التحول لطاريء ؟ وما موجباته  
و بمعنى آخر ماذا كانت مسببات تلك الثورة المشؤمة التي قضت على هذه  
الحضارة ورافقت بالسوداني في احصائ التوضي والدمار ؟ إن الاجابة  
على هذا التسؤل — كما يرى كثيرون — عاصروا الحوادث في اثبت  
الآخيرة من القرون الماضي — وكما يعتقد اهل السودان انهم الذين  
شهدوا حوادث الماضي وما زال انناؤهم واحقادهم يرددون مأساويه  
منهم حتى هذا الوقت . نقول ان الاجابة على هذا السؤال تلتخص في  
جمله واحده هي و تدخل الانكليز ،

## الفصل الثاني التدخل الانكليزي

« إرصاد الامانة واكتشفتم » . تدخل  
لانتكير سمعة ، مطال ارق ، متى الله  
و تارة الشموو اساتاد ، لانتكير بالادارة »

لعل اكثر ما كتبه الباحثون في تاريخ السودان خلال الجيل  
الماضي لم يقصد الى اظهار شيء عن حقيقة ثورة المهدي لان المؤرخين  
من ابناء ذلك الجيل كانوا قد شيوا ونشوا بين طائفة من الكتب  
والاسعار التي حجب - عن عمد - البواطن الحقيقية لثورة . وبرزت  
اسبابا مزيفة ليس لغرض من ذكرها سوى تشويه سمعة المصريين وبيلة  
أفكار السودانيين وقناعهم بالزهد في مصر حتى يطيب لهم طلب  
الانعصال - طائفتين محاربتين - بحجة الاستقلال تارة ، وتقرير مصير  
تارة اخرى حتى يسهل سحر هذه الالة في ادخل السودان ضمن الدائرة  
الحرية ويتم ما تصبو اليه انكثرا من زمن بعيد . لانا لما استشهدنا بما  
حدث من وقائع في جميع ادوار الحكم المصري ابتداء من وقت افتتاح  
السودان الى قيام المهديتين نجد ان هذا الحكم كان حكما عادلا وشيدا  
يسبق الى مبدأ ظاهر - هو اعتبار مصر والسودان قطرا واحدا يضمه



سباح واحد تحت سيادة واحدة . وقد يكون ما ذكرناه في اتصال السابق  
كافيا لبيان هذه الحقيقة

والآن دعني اسودتك عن موجبات الثورة التي هي أعجب ما حدثك  
بطلون الأيام فمواقبك واستمع لقصة لم تسوعبها الكتب ولم تسجلها  
الاسفار المطولة التي بين أيدينا .

يبدأ يعيش السودان في عصر ورخاء ولامن مستقيا والعدل بأصفا  
حناحه ، والبلاد راقعة في رياض السلام والوثام ، والعناصر المختلفة  
والطوائف المتنوعة تتعنى بهد ميمون سعيد ، إذ حضر في عام ١٨٦٣  
صموئيل بكر زائرا مستكشفا ، فذهب إلى أعالي النيل ووجه زوجته ،  
فجول الاثنان في تلك الامتقاع النائية وقصبا هناك أربعة أعوام وهما  
يتفعلان من جهة إلى أخرى مع عرب السودان ، الجلابة ، وعند عردة  
صموئيل بكر إلى بلاده ألف كتابا قرر فيه أن السودان أكثر أمنا من  
حديقة هيد برك بعد الطلام : ولكنه حمل حملة قاسية على عرب السودان  
لمسب انفسهم في أعمال ، والتخاسة ، وتجارة الرقيق وحمل على الاسترقاق  
بعنف وشدة فلا أن سودان عارقي في النساء والرشوة ، وإن مصر  
تدصف كل لعطف على الاسترقاق ، وإياه لم يرقظ موزما من مونغفي  
الحكومة يتهاون في انقاعه عن التخاسة على اعتبار أن من أكرم ما لا  
يستطيع الاستعناء عنه بحال من الأحوال ، وإن ما يهيه مصر من  
مظاهر الرضاء عن الاسترقاق إنما هو تكلف مصطنع يراد به خداع  
المنزل الأوروبية ثم حمل حملة قوية حادة على أعالي لسودان العربي

في مصرهم ، ويقال في الصعيد ، وقائل الفيلة ، ثم قال لولا تجارة النيل الالبيض  
ما قامت مدينة الخرطوم قديمة وهذه تجارة قوامها الخنف والقال .  
سحب الرقيق وقتل الفيلة . وإما تجار النيل الأبيض هم يقاس  
بأن أحدهما المال ، في حين أن الفراق لآخر مجموعة من الآه كين  
الذين لا يسكنون درهم . وكلا الفريقين يسير على طريقة واحدة ، ذلك  
أن رجلا لا مال له مثلا يريد نجمين غزوة فيعمد الى تراص قدر من  
المال فمائة ١٠٠ بـ لتفيع مشروعه ويشق مع الدائر على ايفاء الدين  
باعتباره من قبل يتصف بقيمة التي قد يشتري بها في السوق وما أن  
يحصل على المال الذي يلزمه حتى يستأجر عدة مراكب وطائفة من  
الفرجان العرب ثم يشتري بنادق ومقادير كبيرة من لذخائر والمخز  
المصنوع من الزجاج بهصع مئات من الجسيبات ثم يدفع لرجاله بعد  
امس الخمة اجرا مقدما لمدة ستة أشهر بواقع تسعة شتات لكل منهم  
شهريا . وبعد أن ينضمهم في الوقت نفسه ستة عشر شهرا في الشهر ثلاثة  
مئة تريد على الخمة شهر المذكورة . ثم يستألف صموائل يكر وصفه  
فقول :

وكان قاصوا الصعيد والحماسون الذين ذو غنون في البلاد يعملون  
فريقا فرقا في حصة طائفة من شجار - تجار الخرطوم - حتى أن بعض  
هؤلاء التجار كان يضم الى خدمته نحو خمسين والعين من العرب المزيقه  
يفرمون بمهام الخطف والاصوصية في اواسط افريقيا . وكان لكل تاجر  
منطقة شريفة يعمل فيها ويرسل اليها جنوده وأعوانه . وتنقسم المنطقة

الى محطات في كل محطة نحو ثلثائة رجل . وعلى هذا النحو كانت  
للمصحات المساحة تحت نقاء واسعة جدا . وكان رجال تلك المصحات  
يعقدون المحالقات مع بعض الأهلالي المهاجرة القرى والقبائل المجاورة  
لخطب النساء والاولاد والمواشي والاعنام .

ثم يسترسل فيقول .

« وليس في الامكان رفع قارة افريقيا الى مستوى يقرب من  
المدية ما لم يقص على النخاسة قضاء لارحة اليه ولا هوادة ولا يستطيع  
فتح بلاد لشرق الدين المسيحي لاسها موصدة . وليس ثمة ما هو اسهل من  
لنقصاء على النخاسة لو أن الدول المسيحية الاوربانية ارادت ذلك  
بصفة جدية فاذا اغضضت الدول عيونها وتباونت استمرت اعمال  
النخاسة على حالها وذات انقره السودان قارة اسلامية متحصنة بل  
ومعتصنة لسفك الدماء . »

ثم يحجم على اثر نشاط صموئيل بيكر أن تاروت فائرة جمعية مكافحة  
الرق في انكلترا وتار الرأي العام الانكليزي واضطرت الحكومة  
الانكليزية الى التدخل لدى الخديوي اسماعيل حتى يمتضى في تلك الطريق  
التي كان الخديوي قد رسمها منذ عام ١٨٦٥ بعد أمعان وتفكير لتتضاء  
شعنا فشيئا على النخاسة في بلاد السودان وتظهر اهتمام الانكليز ونحوهم  
للتخلاء سريعاً بصراحة وشدة متزايدة وبشكل عاجلة على تيجار الرقيق عندما  
صار ولي عهد دولتهم ( الملك ادوارد السابع فيما بعد ) يبح الخاخا

متواصلا ظاهرا على الخديوي حتى يعين السير صموئيل بيكر حاكما مطلقا على مديرية خلد الاستواء فاجاب الخديوي رغبته تطمينا لخراطر الانكليز واضمها لصديق عزمه في القضاء على الرق والنخاسة فعين صموئيل بيكر بفرمان لمدة اربعة سنوات مأمورا على حفظ الاستواء .

ولكن بيكر سرعان ما سلك في مهمته سلك الاحتكام الباطنيين فأخذ يجند الجنود بقودهم — على حد قوله — من نصر إلى نصر ومن موقعة إلى أخرى فكان شأنه شأن القائد المظفر في ميادين القتال ودعاه تهوده إلى قيادة حملة صليبية كبيرة لاستئصال النصارى من وشد لزواج الوادعين من أهل تلك البلاد فكان قوام قوته حوالي سبعة آلاف من الجنود المشاة والفرسان والمدفعية وأما هذه الحملة فتد كلفت مصر ما يقرب من اذليون جنيه خلاف المرتبات العادية وكان السير صموئيل بيكر يتقاضى عشرة آلاف جنيه م تناسويا . وهكذا يتبدل حال السير صموئيل بيكر السائح العادي فيصبح ذلك الحاكم الذي لا ترد له كلمة ولا يجد شيء من سلطانه ولا يسأل عما يفعل فأخذت بعقله سلطة الفرد وغروره نزع الاستبداد فامعن في قتل ( الجلالة ) ومصادرة أرزاقهم ومطاردتهم أينما وجدوا وحيث حووا وقامت أحوار القتل والتعذيب والمطاردة والمصادرة في أنحاء المناطق العربية . فكانت تقام المناجات ويشدد العويل والبكاء على من قتلوا من عرب الجلالية واشترك الأهلون في الحزن والأسى لأنهم جميعا ( أولاد عمومة ) كانت تربطهم بالجلالة وحدة العاية والاعتقاد وخصائص العادات واللغة والدين فمضاعن صلات الرحم والقرابة وراح

الناس يمتدحون أن الحريوى في (تعريفه نصرانياً لحكم المسيح) ومن  
مسماه لأبطال الرق قد أصاب الدين في الصميم وزلزل قواعده . وكيف  
لا يكون الأمر كذلك وقد اعتاد أهل السودان — منذ الأزل — أن  
يعتبروا الرق من صميم الدين وكل محاولة لتغيير ما أبقوه وما أمر به الدين  
الخبيف كفر وزندقه وإفتراء على الله .

اشت باس صموئيل بيكر وأعلن حرباً صليبية لارحمه فيها ولا  
هوادة على أجلا به كما قلنا وصار يقبض على كل عربي لسب أو لغير سب  
ويجرده مما يملك من متاع أو نخارة ثم يرسله مكبلاً في السلاسل والاغلال  
إلى الخرطوم بيها هو مرتبط مع نجار بالتزامات فتصبح تجارتهم وترهقه  
الندوب وأما من كان يشكو من الموت بسدر يتيارحه خط الاستواء —  
خوف الموت فانه يقبض عليه كذلك في بلده ويرمى به في السجن .  
لوقت هذه الساعات أشقاء البلاد كل محرق وضائق بالناس سبيل والمسالك  
ولكن هذه السمرات الأربع سرعان ما انقضت «برلائها وشروطها»  
وعندما غادر بيكر خط الاستواء تنفس الأهلون الصعداء .

بصف صاحب (السودان المصري والاكليز) صموئيل بيكر فيقول :  
« وكان لسير صموئيل بيكر رجلاً فاسي «سلب غايقة» سكند اشتم .  
« بسفك السماء وأهراق الأرواح ويقال انه قتل يوماً عشرة جنود لاوب .  
« خفيقة أكبرها أن أحدهم مر بحيمته معزوت رجله بأحد أطبائها فخرج .  
« إليه وألقى عليه الرصاص من غدرا به وكان إذا سار مع جنود لا كشف .  
« جهة كلمه بأن يحملوه على أعناقهم فإذا أندي أحدهم صعدا قتله في .

هـ الحان فابعدته الجنود وبسبب هذه افعمال هموا يقتله مرارا عديدة ابره  
و يصممه منهم عبر ضباطهم المصريين .

وفي السنوات القليلة التالية استطاع الزبير رحمه أن يجمع قوئل الجلابه  
الذين صاردهم يكر وألف منهم جيشا فتح به بحر الزبال ثم ساطنة دارفور  
بالاشتراك مع اسماعيل أبوب باشا حكمدار السودان وقدمه ما إلى الخديوي  
اسماعيل عر به على ولاء السودان واخلاصه .

بعد أن هذه امتوح الجديدة ما لبثت أن انارت نائرة الانكليز  
وسخطهم فالتزموا الخديوي على بحر ما يعتقد أهل السودان أن  
يستدعي الزبير باشا إلى مصر . وما أن وصل الزبير إلى القاهرة حتى  
قامت دعاية شديدة صدره في أورباروج لحا مؤتمر الدول لدى انعقد  
وقتها في (بركسل) لمكافحة الرقي ثم جمعية لغاء الاسترقاق الانكليزية  
في ريد ، وترتب على ذلك أر حجز الزبير في مصر وحرم من العودة  
إلى السودان وذلك في سنة ١٨٧٤ .

ثم انتهت انكرا هذه الفرصة فالتفت بضرورة تعيين انكليزي آخر  
سليم تسمى صموئيل بيكر ويعتمد أهل السودان أن الانكليز قد  
اخاروا الماره هذا المنصب شارح جودون بالذات (١) واجهبت

---

(١) بل ان يتدب جودون لعدم في السودان كان متدب بالخدمة في الصين  
لغاية رعيه صوي اسم (هون توشونج) كان يدعى بأن الله أجله على كرسبه  
في ادماء وكمنه بأن يتلا الأرض عدلا بعد أن ملكت ظله وجودون فانتدب لانكليز  
جودون لغاية هذا الصوفي فذاك جودون سكا وحشيا دائما فحرقه لادم عن  
فيها رمي نعمة وأحد الزبير بد باندب فرودب لحكومة الانكليزية استعدوه  
من اعين .

ورغبتهم وتعين من ثم غردون حاكما عاما على مديرية خوف الاستواء  
فبعث هذا الثعين الجديد التقي والفرع في القلوب وزاء من ثورة غلب  
السودانيين حدوث ذلك اسمين في وقت كان الزبير ما يزال فيه مهيدا  
عن بلاده في مصر في شبه منفي فقال ذلك من هبة المصريين . . . أما  
غردون فقد جرى بحجة إتمام القضاء على تجارة الرقيق على من سلفه من  
مصادرة ، وقتل ، ومصادرة وتكبل ( بالجلدية ) وكانت فترة من الزمن  
لم يتم القضاء بها برهة واحدة فاستحكم الصيق من جراء أساليب النظام  
وأفانين المفارم واستولى اليأس على النفوس وأصبح الأهليون في حالة  
يرث لها دل وهو ان من حسف وحرمان . . . ثم زادت حيرة أهل البلاد  
عند ما عين غردون بعد ذلك حاكما عاما على السودان سنة ١٧٧٨ بالحاح  
كذلك على نحو ما يعتقد السودانيون من ولي عهد الانكليز فأصبحت البلاد  
بصدمة عنيفة وعظمت الكارثة عند ما عزل غردون عددا كبيرا من  
الموظفين السودانيين والمصريين واستبدل بهم جماعة من الأوروبيين . فعين  
في يولييه سنة ١٨٧٨ أي خلال شهر واحد فقط ١٤ موظفا أوروبيا تذكر  
منهم : جسي باشا ، سلاطين باشا ، هردريك بك ، ستون بك ، وادليك  
بك . ومننجر باشا ، وتشريد باشا . ومارنو بك ، وميسون بك .  
وميداليه بك . وجونفرت روس بك . وأمين باشا وخوست وسواهم  
وقد اشتط هؤلاء في مصادرة الجلابية ومصادرة الرقيق حتى أصبح السودان  
كما يقول أهله ( عرب بلا عقل او حليز ملايش أو فعل بلا مفتاح ) لأن

الأرض لا تثبت بنفسها بل لابد من استخدام الأيدي العاملة في ذلك .  
وابواشي لا ترعى بلا راع وترعه هم الرافيق الذي تصدره الحكومة  
وعلى ذلك فقد كثرت تفكير الناس في هذه الأوضاع الجديدة واحتدمت  
غيرتهم على الدين الإسلامي وكان من السهل أن تمت في أذهانهم فكرة  
أن النصارى يتآمرون على الدين الحنيف وأن الساعة ماتت قريبة رأى  
الاستشهاد في سبيل الله لهم عين لقاء والخلود



## الباب الثالث

### مطاردة الجلايين

قتل صليبي بن الزبير باشا وقتل أحمد بن عبد  
بعد التسليم خسي باشا فراروا راسه الزبير الى الغرب  
بشاط هردون «أشياء» أعمال هردون التسمية  
دور لمراء في الشدة واستنهام الزبير في الأمان

أما هردون فقد صار لا يجمع ولا يستكين سائر إلى دارفور  
ووجود الجلايين من أمثال الجعليين والدرقنة والقبيلة المنتشرين في أنحاء  
دارفور بعد أن دحها إسماعيل أيوب باشا بعد وفاة الزبير ومهد لهم الزبير  
رحله سبل العيش بها فعمد هردون إلى طردهم من دارفور وأمر مشايخ  
عرب العرب والتمور بالقبض عليهم والاحتجاز بالنار أو تجريدهم وإرسالهم  
بالقوة إلى دارفور وطويشة في بلاد «مور» بعد قاربين معين وكانت حجة في  
ذلك انجبارهم إلى جانب الزبير وخروجهم على طاعة الحكومة وخصوصاً  
بعد احتجاز الزبير في مصر فاتهم عرب لغرب والتمور هذه الفرصة  
وأخذوا ينهبون (الجلابة) في التجار الوادعين المسلمين الذين عاشوا  
بينهم زمناً طويلاً والذين لم يكن لهم صلوات بالزبير وأبائهم فأهدرت

دعائهم وصاعقت متاجرهم رسيبت أموالهم . نعم ذاعب أوامر الخاكة العام غردون بين عرب البدر في العرب وبين رجل الثور حمل هؤلاء حملة شعواء لا رحمة فيها ولا هوادة على (ناس بحر) أي الجلايين فأخذوا منهم تجارتهم وكل ما يملكون من نساء وأطفال وصاروا يسره بهم لآلوف كاليهاتم وهم عراة ربد أن جردوهم يملكون ساقوهم إلى طويشة وداره وأم شذفة والأبيض واعتبر هذا غنابا عظيما لهم على مساعدتهم الزبير باشا وابنه سليمان وسائر الجلايين .

وكان كثيرون من هؤلاء التجار قد أقاموا بين سكان زفرور سنوات عديدة ولهم زوجات وأولاد وسراوى وأملاك واسعة رقت كلها الآن في قبضة لعرب لمرور ورمب على هذا العمل نتائج بعيدة ذلك أن معظم هؤلاء الجلايين كانوا من عزاز بقبائل ولهم أقارب وأصهار وعصديات في وادي الثين وأصدقاء وأحباب عديدين آلتهم أوامر غردون وأصبحوا يستحلون عده وعلى الحكومة .

وعلاوة على ذلك فإن غردون لم يلبث أن جهز تجريده تحت قيادة جسي باشا لمحاربة سليمان بن الزبير رحمه وبعد عدة مواقع كان النصر فيها لحليف سليمان فكاتبه والده الزبير باشا وأمره بالتسليم ففعل ولكن جسي سرعان ما عذر به فقتله هو وأعمامه ونشأت جيش سليمان بن قبائل والعشائر واعتصمت قلوبه في الجبال .

وكان ينزل قيادة الجيش الذي تركه الزبير لابنه سليمان عدة رؤساء

فلما هم كتاب الزبير بانما من مصر انقسم الجيش إلى حريين حرب  
مار إلى التسلیم ورئيسه سبيان وحزب عارض في ذلك وكان يرأسه راج  
وهو من معاتيق الزبير .

في صباح ١٤ يولية سنة ١٨٧٩ أن سايان إلى جى مستسما ومعه  
سعمانة رجب في ثمانية من أنصاره وهم حسن ولد رقل وأبو بكر منصور  
وموسى الحاج وأحمد ادريس وإبراهيم واد حسن وكلهم من قبيلة الجيعاب  
والأوباب محمد واد دياب من قبيلة لسعداب وعبد القادر واد الإمام  
وسليمان واد محمد والقائد مريح الأسود من معاتيق الزبير وفي ثانی يوم  
التسلیم دعاهم جى باشا لشرب تمهودة وكان قد أوعز إلى بعض الجند  
بعد دخولهم في الخيمة أحاط هؤلاء بالخدمة ثم خرج جى منها فدخل  
بعضهم وأرثقوا سليمان وأنصاره وجعلوهم صفاً واحداً خارج الخيمة ثم  
وقعوا خلفهم ورموهم بالرصاص فانكبوا على وجوههم قتل ولما علم  
قتلوا بك أبو عموري بمكانهم ذهب إلى هناك فكفهم وحفر لهم حفرة  
ودفنهم فيها بعد أن طخوا في العراء مدة طويلة .

أما الرموس الذين لم يسلبوا هذا راج فهم ادريس أبو القاسم من  
قبيلة الضاذيب وموسى جى وإدريس سلصان ومحمد فضل الله وكلهم من  
قبيلة الجيعاب وعبد البين الأسود من معاتيق الزبير وأخذ كل منهم رجاله  
وتفرقوا بين عرب البادية ولما ذاع بين العرب خبر قتل سبيان وأعمامه  
والغردون إباح أهدار دماهم قبض هؤلاء عليهم وساقوهم إلى التماسر

وقد أمر ميستاديه بك مدير الماشر بقتلهم ومبا بالوصاص عملا بأمر  
جعي باشا .

أما رايح سنة ألف من الموت هو ومن انضم إليه وكانوا نحو ألف  
رجل مسلحين بالبنادق فآدهم رايح إلى جهة الغرب فأخذوا يجهزون  
البندق إلى أن وصل (يرمو) ففتحها رايح وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته  
(ديكوره) في جنوب بحيرة (تشاد) وقبل وصوله إلى بلاد يرمو كان  
مهدي السودان محمد أحمد قدوم بآشر دعوته وبدل محمد أحمد هو وخليفته من  
بعده عبد الله النعماني كل جهد في سبالة رايح وإرجاعه بجيشه لنصرة  
الدين والسنن والحق دعوتهم ما بن أرسل يرمو (كيف يحارب أفنديا  
ونحن من دعيتهم وقد فتحنا بحر الغزال ودارفور من أجه) وأسس رايح  
الزبير ملكا عظيما واشتهر بالعدل وبصرامة وظل ملكه قائما إلى أن  
دخلت برنوي نطاق السيطرة الفرنسية فجرد الفرنسيون عليه جيشا  
كبيرا فحاربهم رايح وظهر عليهم في عدة مواقع ولكنهم ما لبثوا حتى  
جرت واعليه حملة قوامها سبع مائة وألف من الجنود المسلحين بالبنادق وخمسة مائة  
وألف من جنود «قرمي» وأربعة مدافع بقيادة الكونت لامي وكان مع  
رايح خمسة مائة مقاتل وستة مائة فرس وثلاثة مدافع فقط فلما التقى الجيشان  
بالمغرب من بحيرة تشاد ودانق في ٢١ أبريل سنة ١٩٠٠ أقتل الفرنسيون  
قلا لا يديدا كال النصر فيه حارب الفرنسيين فقتل رايح وتشقت جيشه  
وحبس الفرنسيون لكونت لامي ولكنه لم ينتهي عام ١٩٠٠ حتى كان  
الفرنسيون قد قتلوا ابن رايح ثم تدخل الإنجليز لموازاة الفرنسيين فكان

من نتيجة تدهورهم أن خضعت برنو لسلطانهم فأعادوا عائلة الشيخ محمد الأمين الكاشي إلى الحكم واحتلوا البلاد يدعوى حماية الأسرة الحاكمة وعكفا رويداً رويداً دخلت البلاد ضمن اممها كانت البريطانية وصارت إحدى مديريات مستعمراتهم الكبيرة في تلك الجهات نيجيريا نسبة إلى نهر النيجر العظيم .

وهذه المناسبة نقول أن البرنو أو البرنوح ، أقصى مديريات شيم نيجريا من جهة الشمال الشرقي وجنوب بحيرة تشاد ، يقطنها خليط من البرنو والكاتنجو والعرب والفلانة . والبرنو هم السكان الأصليون ويقل أهم من عرب حمبة الذين نزحوا من مصر مدة الفاطميين واستوطنوا بعد أن عصبوا أهلها عليها وأسسوا مملكة واسعة جعلوا عاصمتها ، أزدفو ، وكان ابن سلاطين البرنو وعاو ك مصر علاقات ودية وصلات حمية متينة أرى وجودها إلى تعليم عدد كبير من البرنو المهاجرين في الجامع الأزهر الشريف حيث تخصص هم رواق مثل السنارية وكان لرجوع أولئك المتدينين لبلادهم أثر صالح في نشر العلم وقواعد الدين الإسلامي بين مواطنيهم فكان نور نعمة دأبم البرنوخ في ذلك البلاد النافذة عن مركز الإسلام . وفي أو ثل القرن التاسع عشر الميلادي فسار متالب الحكم رجل أزهري من الكاتنجو يسمى تشيخ محمد الكاشي مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية وكان يلقب بـ « الشيخ » لا السلطان وعندما دخلت هذه البلاد في يد الإنجليز في بداية القرن الحالي

انتقلت السلطة الفعلية إلى يد المهتم الإنجليزى ويتكلم برنولفة خاصة  
بهم أما اللغة العربية قلقة الدين .

وبعد مقتل سليمان الزبير وتشيت جيشه كما مر ثار هارون الرشيد  
ابن السلطان محمد المفضل في دارفور غير أن غردون لم يابس أن قبله  
بعد عدة مواقع وضممت جيوشه إلى خليفة السلطان دودبنجة في جبل  
مره وفضلا عن ذلك فقد ثار الصباحى في كردهان ولكنه لم يلبث أن  
قتل هو الآخر وقشيت جيشه ولجأت قلوبه إلى جمال النوبة بنشدون  
السلامة في الإقامة بين أهل الجبال . ونحن إذا أردنا أن نتحدث عن  
المآسى العديدة التى ارتكبتها غردون مدة حكمه الطويل سواء كأمور إدارية  
خط الاستواء أو كحكماء لعدم إسودان ونصف بين عامى سنة ١٨٧٤ ،  
سنة ١٨٧٩ وما ذاقه أهالى السودان من صنوف القمع والمطع والمذل  
والمهانة على يده لأعوزنا الزمى ننقص كل هذه الحقائق ولصاق بهذا  
الحدث بحده صخيم ومع ذلك فلا مندوحة من أن نذكر طرفا من هذه  
المآسى التى لا تزال آثارها عالقة فى أذهان أهل السودان ويتناقلها  
هؤلاء جيلا بعد جيل ، بل وبقرها د التاريخ ، فى مواضع كثيرة .

من ذلك على وجه الخصوص بأنه ما عر النساء والعائلات من أهوة  
الزبير بمقتل سليمان وأعمامه ثمرا به للتسلية حتى هبمن الرعب على  
نهرهم واستهدت بهم الحواجس والأرواح وعاصت قلوبهم فى أرجلهم  
ونساءهم فيما بين أنفسهم عن المصير ومن بعللى أمهم لو بقين حيث كن

لغتك بين الزوج ، لا سيما عما كر جسي باشا . وكانت الأفكار والصور  
والشعالات وذكرات الماضي - ماضي العزة والسيادة والحاضر والمستقبل  
حاضر المدلة والحوادث . ومستقبل الشكوك والخاوف ، تكتف في أذهانهم  
ويدفع بعضهم بعضاً ولا يزيد من التفكير في ذلك كله إلا حيرة على حيرتهم  
فيهم من مشدوهاة منمورات بالمحنة ينتظرون من السماء إلهاماً شديداً إلى سبيل  
الخلاص والسلامة وقد أدركت حقيقة الموقف وما يكتفه من خطورة  
جسيمة ، العازة بنت إدريس ، وكانت لعازة هذه ، فسكينة الجيش أي  
، غناية ، وهي امرأة فصيحة اللسان تقول الشعر باللغة المحكية فخطبت  
في نقرة المشدوهاة : « يا بنات هوى ، لقد غربت حياة رجائنا في  
غياهب الدم ، ولكن أرواحهم تناديكم : الفرعة : الفرعة : هيا :  
رجائنا غربوا ورواحوا بعيد وبلا رجوه : رجائنا تركوا بلا وصية لأن  
العدو الخائن قدام غدوا ونحن هنا بلا انتظار : هيا أفرعن من هذا  
المكان : اربطن أصلابكن وكربين ( أي احزمين ) هدمكن واشددن  
رحالكن فليس في الوقت منسع : لا تدعى الكلاب تمتص دهنكيسه  
( أي قصب السكر ) ولا تدعى زهور ، الشاف ، ( الثمن ) تسقط في  
الوحل وتطأها البهائم فادا أدرككن العبيد أقرشن شعوركن وامتنعت  
عليكن اللعنة الأبدية :

نحن نأمر بالفرار من الوقوع في أيدي الأعداء ، ونجتهد في  
الإفلات ونلجأ إلى كل حيلة قد تكفل لنا الحرب هيا : ادرسوا  
السيوف والخرااب كالرجال لا تدعوا الدمع يفيض وبهمز الآن :

المرب نصيب السلامة والحيث على من توفى ، وماهى إلا دقائق معلومات  
حتى هجرت النسوة أمكنتهن وصرن يمس على وجوههن بقطعين القباقي  
ويحترقن الغابات الكثيفة ، ويسكن المعازل ، والوديان الخفيفة سائر  
عن غير هدى حتى حلت بديرية كردان بعد أن اخترقن دار النومة  
ودار حُر ودار المسيرة والحوازمة وقد صرن فى أرض معمرة قحلاء  
حتى صرن فى حالة مثلها النعاسة وتحلت عليهن مظهر لكآبة وآيات  
المثربة وكلها صادق ، فريقيا ، ( أى منزلة ) من فرقان العرب نزلن به  
وهن يصرخن صراخ الهزع والنجدة ، صراح الصيب ، ( المستجير )  
ورامدن لعاره بت إدريس المار ذكرها فكانت تحاطب رئيس القبيلة  
أو الفريق قائلة :

• يا عمار الوادى وساده البوادر ،  
• يا مجيرى الضناب من طاش الاعادى ،  
• يا سادة الائمة وقاية الائمة ،  
• يا حافة الدار وستار من العار ،  
• يا مولى الخائفين وحدة المستعدين ،  
• يا حرمه داركم وموقف باركم . أن تاروا ،  
• ونحن داخلون عليكم من السفوح الحيف ،  
• ونحن استعافكم بالعرض وحرمته والدين وغيرته ،  
• نحن طلبات منكم اثنابه من عدد ديننا وعدوكم ،



نحن بدأت بحرب عراز وبنايات قبائلكم فينا  
والأممات والمخالات والعمات والأخوات وأنتم عرب ،  
وتمسسون الزمار وتأنون التطريد وتفهمون  
والشريد من الرجاء . قد بد جئناكم طائبات ،  
وبعد أن قتل رجائنا وصرن آياتي - محمل ،  
اليتامى . قارفوا عنا صدمات الإيمان وعوادى ،  
الأيام . لقد ترك رجائنا الدنيا بظلام ولنا وأنتم ،  
ياساده الدنيا وحكامها واقبالها . لا تسحروا من ،  
هؤلاء الضعاف وأهل الليل والارباب . أنتم ،  
كالشبح الذى يذهب بالجوع . وكالسماء الذى ،  
يفضى الأمرى . وكالسماء التى تطلع منها الشمس فتدنى ،  
والله دان وكالنار التى تنضج الطعام . وكالسماء ،  
الذى يطمى العطش . وكالدواء الذى يشفى المرمى ،  
ويجى المرقى قد جئناكم طائبات لناؤوا ونخففوا ،  
عنا ما نحن فيه من تعس وشدة .

فبىد لشبح : لا :

أشرف مستكن فى أعز جوار وامنع ،  
دمار . لقد عطفك أحشائي عبيكى بعد ،  
ما عبت أمركن . فامترحن على مراد ،  
والراحة والأمان واملأ قلوبكن بالطمأن ،

نتيجته .

« هذا هو المأمون فيك يا عدي ،  
« بارك الله بيتك وذكى نعيمه ودياراك ،  
« ولست لك ميعل مقصودك »

مضى محدثنا يغيب خاطريه في وجوهنا انتهية إلى سماع حديثه وقد  
تأملت على أمارته علام الشجن والحزن ، ولهله كان بطربه ما يحسه من  
شفتنا وتاهفتنا إلى أرواحه له في هذا الحدث الممتع . غير أنه لم يطل  
انسمت فقد تهدد ورفع رأسه وقال : ما أضلكنكم أيها الخبان رأيت ما رأيت  
على أن عشتى لم تخفق هذه الصور ولم تفسحها من خيال كاذب ، ولست بها  
وإليه مشاهداتي الشخصية فقد كان والذي ضمن رجاله ساجان الزبير  
المعيا قدام (جسي) بشارا قدرا بامر غردون وكنت . أنا شهاب الآن  
في سن الوعي والمراهقة وكنت اصحب أُمِّي في هذه السرية التي ، اقصر  
عليكم الآن حوادنها . أيام ان كنا . وكان لنا جاء وكنا حكام وأيام  
ان كل لنا شأن وعن وصوله . هي أيام مضت وانقضت بخيرها وشرها .  
ولكن مهما تمافلنا عن الماضي فلم ينس سياسة البدوان التي إذاقتنا من  
العداب ، ونكالت بالآباء وتغرب لهم فكثير من رجالنا الذين كلهم  
المجد تحولت سيرتهم تحولا مؤلما . في حين التمس غيرهم لانفسهم  
مأوى في خارج السودان يلجأون إليه امثال واسع الزبير وأعرابه وبقوا  
به بقرهم الابسى وقد جمر عليهم ابدهر توب الدسيين . ثم تهدد وقتا :

و اذا انطلق لسان المحزون بالشكوى فقد زال نصف دأته ، واذا نصبت شكواه قلبا واعيا انتقلت إليه ... وما انا اقصر عيسكم نصيب هؤلاء النساء من الجهاد — في شان الله — وما اقلته من مناسبات ، وما تدب به ذا كرتي من اناشيد الالهي والنجني ، غير اني اسارع واقول لكم انه كان بين هذه ( السرية ) لساء حيللات غاية الخيال . حكايا بانصحب كاشفت الرقوس فكانت تنجلي شعورها من المحولة الفاعحة فوق صدورهن العاتقة كاسين تحف ندره بين فضاء الوادي ، أو كاسين تماثيل حية من آيات المعنى المزعوني صاغتها آلهة المصريين على ما تشتهى وتشاء ذات قامات قارعة واجسام بيضاء ماعمة فتية . وعيون ( جمهيه ) عميقة ساحرة ، في نظراتها فتنة واغراء . وكانت هذه العيون الساعمة اللامعة ترسل نظرات ساحرة فيصن انشفاقا ورحمة فقدمت الابتسامات على تلك الشعاع لفظة احضراء التي تستوى النظر وتأخذ بمجامع القلوب والتي كانت يوما مائدة في مباح الشباب ورواق الحياة . .

كانت الصغيرة تغشيب فينصت الناس كأن على رؤسهم الضمير وتعدد مناقب ولها بصوت مؤثر حنون ، يبدو في مראה ربات الشجر والشجر الخيرة . فتنادى الليل وتناجى وتشكى له وتشكى . وتخططه في من هذه الرقة المشجية ، تمنحه الباكية . وكان هؤلاء النساء يقفن المساحات بها حلقا وترى البادات مذهب ينشدن الدرائي الرقيقة وتنزل ، أو تار ، تصوب الدخان كثيفة مؤلفة هذه امرأة تناجي ابنا بالبكاء وزرف المصروع وتحدث إليه بكلام مؤثر فتبكي العيون وتسمى القلوب وتعتقها امرأة

أخرى تناجي أخاها كأنه يثطق وهو جامد اللسان بعيد عن المكان  
فنتقول .

« قم يا محمد شديدا لك لعاق ،

« قم يا محمد أعدل الخاطي ،

« قم وقر يا فاطمة هائي ،

ونلك امرأة تودع ابها بكلام مؤلم فتحدث إلى الأحبار ونحاطب  
الأشجار والنجوم الساهرة وظلام الليل وكواكب السماء ثم تعطف  
ونقول :

« يا سحر الوادي : ديعنى عندكم احمررها بألطفكم : إن روح انى ،  
« ترغرف بأجنحتها تصالبكم بحق الدم . أما جسمه فراقده رقة الأبد ،  
« منتهجوع في لحد . إن نسمة الصبح العاطرة واغرودة الطير الساحرة ،  
« وصبيحة الديك الصادحة وصدى النحاس الداوية . لن يحرك لهم ساكنا ،  
« ولى يبعثهم من مرقدهم المادى . لقد قتلوا غدرا ولم تعد أسماؤهم تلالا ،  
« فى صدحة الخلود ولم تعد أروية المنخر تخفق فوق رؤسهم حتى نبتقى ذكرهم ،  
« براسا يبتدى به المدجون فى غياهب الرمن الحقيق . لن ترى الزوجة ،  
« مهلة لقا . زوجهم حين أوبته . ولن يمسى الأطفال هاتقين يرهون بشرى ،  
« أقدم أبهم أو متسلفين ركبته . أو متخاطفين قبلته . . . لقد قتلوا غدرا ،  
« بعد التسليم . إن الجسد لنقى شوق إلى صدر خنون يركن إليه واللعين ،  
« الدابة لن حمة إلى بعض الدروع المسكبة والآن ليصمت كل همزة ،

«لمرة ليستمع إلى صوتهم وهم يهيمون من أعماق القبور، قالين :

«نحن قتلنا عدداً والقدر بأهل القدر وفاء عند الله . نحن نستجدهم ،  
«ويحق السنة ألا تدعوا الدم يصرخ إلى السماء صراخاً أليماً في الجبال ،  
«المظلة لتلا تزل بكم الصربات الهائلة التي تأمر بها شريعة الانتقام .<sup>(١)</sup>

«وكل النساء يلبس لباس الحرب والنزال ويشدعن سدة الحرب  
«ويقبضن السيوف كرجال المحاربين وتقسم البنات الحسان كاشعات  
«رؤوسهن وقرونهن وتنجزن وتعرض كاهن فرسان في ساحة الوغى يصرخن  
«بأعلى أصواتهن :

«نحن بعد أن اباد العدو رجلاًنا لبواسل ،  
«لا فرصى بالاستكافة ولا تقبل المهانة والضعف ،  
«ولا نرعى أن يعلق علينا فتنة السيف والقوس ،  
«تركنا الجبال والحجر ، وبعثنا الجهاد والحجرة ،  
«نحن ناس الحرب ، نحن أهل الطعن والضرب ،  
«نحن لا نموت على القراش كما يموت الجبناء الأذلاء ،  
«نحن استعضنا أنفسنا بالرجال - نحمل الأضرار ،

(١) منه أهل البادية أن دم القتول يصرخ دائماً في أقباب الدمامة  
ويطلب الثأر - وهذا هو الدم المنطرب العرب كلهم واستمرت ذؤوبهم نصيب حيث  
يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طير فلا يزال  
يصيح ويصرخ إلى أنه يؤخذ بثأره وهذا السعد الحارثي يحرق السنة . من قاله  
والمن بالسن .

« وياخذ بالنار . ويضلل الدار - يا عمار الرادى »  
 « يا أهل البوادي أرقدوا السيران واحرقوا »  
 « الحراب وحمر السيف ... لأنوا ... »  
 « لا تجعلوا الساق يستقر على تقدم غيوم شكر »  
 « قرب ... قرب : قرب الدفن للشارب وقرب »  
 « قرب الكنف للغارب . »

وكانت لغارم تفتى بين لحيان وتكشف عن رأسها تطلب النجدة  
 تارة ومعدة مآثر الزبير وابنه سليمان تارة أخرى فتقول :

« وند جدباى كريم ما كرم بلائيه (١)  
 « كريم يرحم لعدمان التي لاهه يابيه (٢)  
 « كريم يعطى الى مخلوقه كاييه (٣)  
 « كريم يدخن العوجه القرساه لاييه (٤)  
 « ما نمام ما مسك الخرص في داله (٥)  
 « ما كداب ما يسمع حداثا قالوا (٦)  
 « يتبسم بالضحك وقت العديم يهنا له (٧)

(١) كان ابي يوسف جدباى الناموس الشاعر والاميرد أن سليمان كان  
 كريمه عن حتى لاكرم تظاهر (٢) يحزل الظاء لعمده (٣) كريمه علي من  
 ركه اديم (٤) يحود ينفسه ولا يحجم علي البحول في صفة الحرب (٥) لا  
 عرفه الزميمة ولا استمع الى أساءتها (٦) لا يكذب ولا شتم الى الكذاب  
 (٧) يتوب من ذنوبه بالكروب بالضحك

- أيدى مساعداء للعتاء ألقى بيستر حاله (١)
- كم ياسليمان شذولك على متبور (٢)
- وبيدك يارو نعل تمل قدر مائدور (٣)
- كم كمل عبالا تضيع الككيدور
- كم كمل عبالا الميرى والمأمور
- كم كمل عبالا تأمر تقول حذدور (٤)
- كم كمل عبالا فوق الحراية تدور
- كم كمل عبالا غدى الحنة وصقور (٥)
- كم كمل عبالا حنت مصر واستمبون (٦)
- ثم تعود فننى على سليمان الزير قائلا : —
- أوريث نفايلهم الى كلوم باعر لهم (٧)
- الخوف والبهل بالسكة ما يصادفهم
- كل مرجوب يشلوه فوق اكنافهم (٨)
- والغريب فرد يوم كلمهم بالفهم
- ان خطر او مستقيم هو ابن ملوك
- واد الزير الصاق ما مشررك
- غير سايمان كل الاصل يوك يوك (٩)

---

(١) ويده مساعداء على حذل مط (٢) عبالا الحيل (٣) الاسبير وايدى  
 لمطالفة تعيد اليبشان (٤) التبت (٥) أى أنه أشجع الميود ياتقوم البشرية (٦)  
 ايلد شايبا أيضا معر واستمول (٧) أى حسانهم التى امتاروا بها (٨) كرم من  
 اخفى عليه الدهر (٩) كفة تركية معناها (مفسر) او مسدوم

أعلا البد صحيح وقت الحديث شك شك (١)

وكان لصراخ أو تلك المسورة اثر فعال في إثارة المواقف وتحريك  
كؤوس الحقد في قلوب العرب ضد الحكومة وما يحكي وتناقله الألسنة  
أن الامام محمد باقر سمع ذات مرة امرأة تبيكي وتئنخ على زوجها وعائل  
أولادها فتأثر وبكى بكاء حاراً لم يكن من كان حاضراً معه وقد طلبت من  
محدثي الشيعة ان يعيدوا على مناجاة هذه المرأة حتى ينسى بنا إنبات  
شيء منه لتصوير ذلك (الجو التاريخي) الذي كان يحيطه بالناس في تلك  
الأيام الخوالي فقال : —

• وحالي حال العدو المسكين .

• وحالي حال إلهي إنكيتك للسكين .

• وحالي حال المأسوع مريت فيه سموم الثعابين .

• وحالي حال أم البنية لمن جناها بين (٢) .

وما يؤيد ذلك فإن مرأتى هذه النساء ملزمت حبه قدرد في الافواه  
وترون في الاستماع حتى اليوم في غناء المكروب وعزاء المحزون .

ولما رأى عرب كردفان مادمهم من مصائب وماتوا إلى عليهم من  
نكبات ورأوا معير سيدان الزبير ودارون الرشيدى والصاباحى وما أصاب  
سأهم ورجلهم من تعاسة تملكهم السأم من الحياه وشعروا بالانقص في

(١) كنه تركية معناها (و مر)

(٢) ومعنى ذلك أن حال هذه المرأة كشدة حدة فقه كل واحد  
وأصبح كعيران شد وثاقه وعلى راتة سكين أو كلاسوع مري في حدة  
أو كدالة أم ظهر على أنها الخلى وهي لا تزال هذراء



كياتهم وبالعراعر في قلوبهم وعلى ذلك فانه ما أعلن الامام محمد احمد التبريد حتى رموا بأنفسهم في أحضانها فكانت عرب كردغان أول من لبى النداء دفاعا عن كياتهم وكيان رجوليتهم معضايين الموت في سبيل الله على أذات أذلاء مهانين فكانوا أشبه بنهر علفى وفاض مأوء من فوق الجسور فاشترق الحقول وخرب المزارع ولم يدق اسدقاعه عاتق أو كالمصروع أصابه جته فهبوا للجهاد بغية الخلاص بما هم فيه من يؤس وشقاء ونعاه بهيمة وصار شعارهم ذلك القول الذى رددت الوديان اصداؤه في طول البلاد وعرضها « فى ساء الله » : « فى ساء الله » : « فى ساء الله »

• • •

وأمعانا في إثارة شعور الاهلين انشأت الادارة مدة حكم عردون مصلحة أطلقوا عليها اسم ( مصلحة الرقيق ) وعين لها عردون من يدعى بكتر باشا مديرا فقام بكتر المذكور لتنظيم هذه المصلحة واستخدام مدونين ومأمورين وجند الهجاة والمشاة ثم أنشأ للمصلحة فروع في أنحاء السودان فانتشر الأرقاء من ناء ورجال هذه الفرصة وصاروا يتركون أسيادهم ويفدون أفراجا على هذه المصلحة فتعطيهم قذاكر حربية ختم الحكومة . وأمعانا في السعدى وانكابة عممت الادارة إلى تشجيع رقيق واغرائه على ترك أسيادهم وصارت تقدم لهم الغذاء والكساء وتصريف لهم ( الجراية ) من أموال الحكومة فوق دولاب العمل ( فى البيت والقبيل ) على حد قول لسودانيين ووقفت النساء على بيأت مشدومات

لا نهن لم يمارسن ( طحين الاذرة على المرحاة حتى يصير عجينة ) ولم يمارسن ( عواصة هذه العجينة على الدوكة حتى تصير كسره ) أى خبزاً يؤكل ماهيك ، الخدمة المنزلية الضرورية وورود الماء وخدمة (الضبهان) وغسل الملابس . وكان من عادة المراء تعرية انها لا تتزوج بدون أمه أى جاريه تقوم على خدمتها فى حياتها الزوجية عملاً بالقول المأثور ( لمرية تحمل ونلد والامه تطعن وتود ) حتى أن عدد الجوارى والعبيد الذى يقدمه للزوج كان يثبت فى عقد الزواج ضمن الصداق وانضلاً عن ذلك فقد أنشأت الحكومة - امعانا فى اهاب الخواطر مكاب لاعطاء ( نذاكر ترخيصات ) دعاءه للجوارى الحسان حتى يمارسن المهنة تحت حماية الحكومة ثم خصصت لهن أماكن أطلق عليها اسم ( كرخانة الحكومة ) .

وحصصت الحكومة أيضاً ( اندايات ) اصنع اخر وشربها وكان غرض حكومة غردون على ما يبدو ان تستقى مانريده من معلومات سرية بخصوص الرقيق وخلافه من هذه الأماكن الدسة كاثنته سلاطين باشا فى كتابه ( السيف والدار ) فتفتشت افحشاء وكثير المنكر وسمعت الهوى وعظم الخطب وانتشر الفساد .

واكتظت مدن السود ان أمثال الخرطوم والابيض وسواركى وكسلا بآلاف مؤلفة من لـهـلة والرعاع وآلاف مؤلفة من ( الكطار ) الذين لا يسكنون من أسباب العيش غير أدوات الجريمة وأصبح المشتغلون

في رعى الماشية وفلاحة الأرض من رواد الميو والحلابة وما كانوا قد فقصوا عنهم ثوب الخشمة ولا يعرفون الشرف والظفر والعتاف معنى فقد انطلقوا مع ( الفرخات ) أي : الجوارى الصغار ، ولما مع اللاهين يحدهم إلى ذلك سعار إلى اللذة لم يجعل عليهم ( الحرية الطائفة ) اطفأة بما كانت تقدمه لهم من صنوف اللذة التي تشتهىها نفوسهم فأنغمسوا فيها انغمس الذباب في العسل وكل من يقوم عن الخشمة في الإندابات نفر من الجوارى اللواتي يحس مع بيع آخر بيع لصبا به والغزل الرخيص وصحب ذلك كله الشذوذ الجلي والبل المذخور وشاع حب الفلانة وقد يكون هذا الشذوذ موجودا في كل مكان وزمان وبكر الجهر به وعدم التستر منه حتى أن صاحبه لا يرى فيه عاراً ذلك حال ما كان يطعمها أحد بل لقد طغى الشذوذ لدرجة أن صارت الجارية لا تعد جميلة إلا بالقدر الذي يشبه جمالها فيه جمال اللام .

وقد أشار سلاطين باشا في كتابه ( السيف والنار ) إلى تفشى هذه الرذيلة أيام المهديّة وقد تفاض عن الخليفة وسمى أصحابها ( بالملاوطه ) ولما كانت الجارية كما هو معلوم تقوم بمالا تقوم به ( الحرة ) فلا بد إذن من صفات وخلال تعلم بها كهنما ونحجب الناس في اقتنائها وهي صفات وخلال ترجع بعضها في نظر السعفاء كفة الجارية على الصفات وخلال التي تنحى بها الحرة . فامعن الجوارى في حياة اللهو والهجور . ومع آخر الجوارى جاء الغناء الذي أحكمته الصنعة البارعة . ونحن نقبض المعارة الآتية من مقال نشر بجريدة الأهرام سنة ١٨٩٦ جاء فيه : أن المرحوم

الشيخ على عبد الله الذي كان في ذلك الحين شيخ السجادة القادرية في  
الخرطوم كتب عريضة إلى الحكمدار غردون بقور فيها أن له زاوية  
للمعدة تسكنها مئذنة بجلة للعاهرات الواقي لا يقتصرن على السلوك  
التصحيح بل بفلق أيضا راحة العباد بما يحدثه من الجلبه بالرقص والنقر  
على الدفوف و، ضرب على آلات الطرب : فأجاب غردون على عريضته  
هذه جوابا لا يليق بالاديب أن يدس قلبه بنقله سماع الله كانه .

وود حدثني رجل عاصر هذه الحوادث فقال كان الجوارى يخرجن  
إلى الشوارع بفنن الاغاني الخدعة في عبارات عارية مفضوحه منها على  
سبيل الكيب للنساء الأحرار ربات لخدور .

• كندروك . كندروك ما يتأخذ لعزبان

• نعل في الثوب رجالة الذون

• طلع فوق دلويم ونوقد النيران

• ونسفن مرار حنضل الجيزان،

وكانت الجارية تعرض لنشيان في الطريق وهي تعنى : قبح الاغاني  
وسون خجل أو تستر تسد الدرب على الشاب تحذره وتساوره وهي  
تقول

• سحوى حركة أم حريكة

• أمى وأبرى دفعو في بيك

• تدبني يا واد أمى تدبني .. .. !!؟

جاء في كتاب السودان المصري والإسكندر الحادثة الآتية نوردها  
هنا لدلائلها المتيرة . —

دعنا كان يخدمه الإسكندر في السودان على يد سياحهم أن أحد هؤلاء  
السياح المدعو ( المستر شوهر ) الذي سكن السودان وجال في أنحوائه نحو  
خمس عشرة سنة لبصرم فيها تيران الشفاق كان ذات سنة مسافراً في  
شواطئ البحر الأبيض في جنوبي مركز الكوة فنزل عند قبيلة رحولة اسمها  
( قبيلة سليم ) وأقام بمنزل شيخها ضيفاً كريماً فكان رجلاً يصحرونه إلى  
الغابات ليستطلع ما يريد ويرسم ما يريد وكان من عادات القبائل الرحل  
أنهم كلما نزلوا في الصحراء يقيمون مسجداً وذلك بأن يجمعوا قليلاً من  
التراب على شكل دائرة مربعة فأراد ذلك الضيف الكريم أن  
ينقل رسم هذا المسجد في دفتر سياحته فرافقه إلى المسجد كل من في  
الحج ليأشاهدوا رسم اللغوتوغرافيا وكان ذلك وقت آذان العصر فعندما  
سمع المستر شوهر المؤذن أخذ يحدف ويتفوه بكلمات يثمنها إجلال مقام  
الدين من كتابتها فقام عليه الأهالي وبعضهم أراد قتله وقد نالته جراح  
ولكن شيخ القبيلة تدارك الأمر بكل صعوبة وحى ضيفه بعد أن قتل  
أحد خدمه ورفقائه الإسكندر وتمكن من هربه بلا :

ولم يدرى حصره إلى مركز الكوة أرسل إلى الحكمدار غردون برسالته  
يخبره فيها بما جرى له فقامت قيادة الإسكندر على قبيلة سليم وعمرت  
البواخر عباب النيل حاملة أربعة آلاف جندي لقطع دابر تلك القبيلة  
الضعيفة التي أهانت شرف الإريطاني على حقوقهم فها هو هذا الجيش قبلاً

سائر بالمداخع والخيول تحت قيادة المستر شوهر وذلك قبيل الفجر وأمطر  
عليها تدرا حامية فأهلكها على يسكرة أيها ولم ينج منها إلا رجلان وامرأة  
اختياراً تحت مقتل الدين بلغ عددهم ١٠ آلاف ذهبت ارواحهم ضحية  
لإدانة النفوذ الإنكليزي المشنوم .

وعلى أثر هذه الحادثة أصبح البسطا واعامة من السوداين يعتقدون  
بما يقوله لهم الإنكليز من أن الحكومة المصرية والأتراك لا يدينون  
بالدين الاسلامي لأن أهلاك قبيلة سليم بإرسال أربعة آلاف جندي عليها  
كان بأمر خديوي مصر ولكن العقلاء كانوا يعرفون سر الدسيسة وهو  
أن الحكمدار غردون كتب إلى لخديوي يقول أن قبيلة سليم نبذت طاعة  
الحكومة وثارت عليها فأذن سموه بهكبح جماح الثائرين وناديبهم .

وكان المهدي نجاه هذه المظالم بشدد التكبر على الحكومة والناس  
يستغيثون نأزاه ويتنورون بنار ذكائه وأخذوا يرتقون فرصة للخروج  
من دوة تلك السيطرة الاسكليزية . أما السودان فبعد أن كان يؤدي  
إلى مصر جزية سنوية بعد مغائه نحو ٤ ألف قطار سنا واصف مليون  
من الجنيهات أصبح ينقاض من خزانها مليون جنيه في السنة لينفقها في  
مصالحه عما لم يهدله مثيل منذ ضم السودان إلى أملاك مصر . فظناً مل  
العاقل إلى أي حال أوصله الجور والظلم وفي آية ماوية أوقعه أوتك  
المصاحرين .

...

جاء في كتاب (السودان المصري والاسكليز) ويتصل إتصلاً وثيقاً  
بموضوعنا قول صاحبه ما يأتي :—

وعم القراء ما أحدثه الإنجليز من بقتة والعداوات في داخله السودان  
 أي في مديريات د رفور وكردفان ودشودة وبحر الغزن ولما كان غرضهم  
 الوحيد هو سلاح السودان عن مصر فتعميم اضطراب في جميع أنحاء  
 حتى تعجز الحكومة عن لعبها وكبح جماحها أخذوا يسمعون في تلك الشقاق  
 بين قبائل السودان لشرق أي في مديرية كسلا ومأمورية القضاوف  
 ومحافظة مصوع وهرر ورياح وسواكن فاستعملوا عليها جماعة من  
 مأجوريهم الإيطاليين والنصارى بن مثل ( مازويك ميسداليا ) وغيرهم  
 من أعوانهم ومن تخمقوا منهم إليهم من أولئك الذين لا وطن لهم غير  
 الراتب فراح هؤلاء يظرمون نيران الشقاق بين هاتلك القبائل وتحسن  
 الحظ أنهم لم يفلحوا وطأت أعم السودان الشرق مخذلة إلى السكينة النامة  
 وطاعة الحكومة ومصادقتها وكانت عروق التجارة بين هذه الأمم وبين  
 الحشاش دائمة نامية لأنهم كانوا مستوطنين بلادا واقعة في جيرة الحشة  
 من ناحية العرب وشرق ذلك فإهم كانوا مترادين متحابين وكل من لجأ إلى  
 يوحنا محافظا كل المحافظة على مصافة الحكومة المصرية وبينه وبين سمو  
 الخديوي اسماعيل باشا رسائل رد وحسن تواصل وسهال وما ذاك إلا  
 لأن المصريين لم يكونوا طامحين إلى بلاده فلم يكن مضطرا إلى إقامة  
 حامية عسكرية في نخومه أو حشد جنود لرد غاراتهم وصد مطامعهم كما  
 تفعل إيطاليا اليوم مع خليفتها وذلك مع طول مدة مجاورتهم له التي لا تنفص  
 عن ٧٠ سنة ولذلك ترى الأحباش اليوم يأسفون على فراق مصر جاراتهم  
 الأمانة الألوقة ويرددون زفرات الحين على يدها .

ولما خدعت مصادي الإنكليز وماجوريهم في إحداث ثورة في  
لسودان الشرفي مع ما بذلوه من أموال الخزانة المصرية وروا أن  
سكان هذا الشرق لا يزدادون إلا سكونا عمدوا إلى الخيل التي حركت  
سواكن والجهات الأخرى وعطلت تجارتها وأخذوا يستأجرون لصوصا  
يمزقات شهيرة ويأمرونهم بقطع السبل التي كان يسلكها التجار الوطنيون  
والتجار الحبشان فأخذ التجار حذرهم وأصبحوا لا يسافرون إلا إذا  
احتشدوا أتوفا للسبل عليهم معاومة أولئك اللصوص السياسيين وصباة  
تجارهم فأفلحوا أفلاحا مبدا .

ولما رأى الإنكليز وأصايرهم أن هذا المسمى الجديد لم يس فتيلا  
أحدوا يدبرون هيرة . فقر رأيهم على زيادة المكوس والدخوليات  
فصبروا على ذق العسل أربعين قرشا مع أنه لا يساوي إلا خمسة قروش  
فقط وجعلوا على قنطار البن ٨٠ قرشا مع أن ثمنه ٦٠ قرشا لا غير .  
فصامت قائمة لتجار ودفعوا عريضة إلى الحكمدار غردون يشكون فيها  
من لائحة المكوس والدخوليات الجديدة فعنفهم وقال لهم إنكم لتخافون  
تجسور الأتقاء من بلاد الحبشة وبني أريد قطع تجارتكم هذه ثم أصدر  
أمره بأن كل من شك من هذه اللائحة يحكم طبقا لللائحة بيع الأتقاء  
وديك كصفه مع ملائيم منجار في دارفور عما أشرنا إليه في رسالة سابقة

لما تجار الحبشان فكانوا يأخذون منهم تلك الضريبة الفاحشة وفوق  
ذلك يقيمون لهم المراقيل بذهب بأموالهم كما تقوم لمراقيل في وجه



تجار السودانين الذين يتواردون إلى مصر في هذه الأيام ورفع الحبشان شكواهم إلى النجاشي يوحنا فكتب كتابا إلى الحكمدار غردون يسأله فيه الرضى بتجار بلاده وبذكره بالامادة الموصوعة بينه وبين الحكومة المصرية المعاصيه بألا يؤخذ منهم أكثر من اثنين في امانه فاعتزم الحكمدار غوردون فرصة ورود داك الكتاب ابائى عملا يكون قاضيا على مضافة الحبشة لمصر بن يكون سببا لإعلان الحرب بينهما بما تكون نتيجة قطع التجارة وحمل الحكومة على القيام بمعدات الدفاع وحشد الجنود إلى لتخوم حتى يكون لشرق السودان أسوة بغربه فكتب إليه جوابا حشوه السباب والتهديد والوعيد وبما جاء فيه قوله للنجاشي :

« إني سأجمع جنودى وأفعل بك كما فعل الإنكاز بسلفك النجاشي كله فقد لتعسك الخذر وسوف تعلم إني لست حائسا كالانتراك »

ولحسن الحظ أن النجاشي عندما ورد إليه هذا الجواب دال بان حوته « أن هذا الرجل الإنكازى وأنه يريد أن يوقع بينى وبين صديقى الخديوى اسماعيل باشا فأولى لى وأحصى لى أن لا أجيبه » فلانصبوب وزدائه هذا الرأى وأشاروا عليه بان يكتب إلى الخديوى يخبره بهذه الحادثة التى أثار عامله الإنكلىرى غبارها ولم نعلم ما جرى بعد ذلك ولكننا رأينا الحكمدار غردون جمع جنوده المصرية فى القلايات المجاورة لمدينة غندر وبالق فى إظهار العداء للنجاشي وفى آخر الأمر سافر من القلايات إلى عاصمة بلاد الحبشة نقبص عليه وعلى من معه

وسبقوا إلى المصممة لمحاكمتهم حيث دخلوا على الملك النجاشي بلا استئذان وأخذ غوردون يعتذر إليه بقوله إنني كنت مأموراً بأن أكتب إليك رسالة وأن الذي أمرني هو صديقك الخديوي اسماعيل باشا فرفضه النجاشي وأقر ورائه على عاكرته فسبق إلى المحاكمة لحكم عليه وعلى من معه بالإعدام ولكن لما عرض الحكم على النجاشي يوحنا لوسقه أتى وقال أن الرجل لم يخرج عن كونه عاملاً لصديقي خديوي مصر يقتله بعد إهانته في جانب صداقته فاطبق الرأي حيثنذ على إطلاقه ليعود إلى المنعوم المصرية ولكن من غير الطريق التي أتى منها فيسافر من طريق أسيرة فصوع مخفورا ويكون سفره في الليل لا في النهار لتلا يكون جاسوساً انجليزياً .

( أما الإنكابر والنهبوا غيظا لانهم لم يفوروا من لندن نجاشي الحاشية عما أوزوا به من لندن عندك زنجبار ) وهذه المتاسعة يصح لنا أن نذكر مسألة زنجبار والبلدان المجاورة لها كما ورد في نفس الكتاب ضمن المجلات التي نشرها صاحبه في جريدة الأهرام قال : تقدم لنا القول في إحدى المقالات السابقة أن المنصور والمؤكد أن تكون أوغندا وما يحدها من البلاد طعمة لمن هو صاحب السلطة على أملاك خط الاستواء التابعة لمصر أي أوغندا وما في جيرانها من البلدان كما منتظر دخولها بحوزة مصر .

وفد أوردنا في المقالات السابقة ذكر امتنة والاصطرايات التي

أضرم الإنكليز ناراها في داخلية السودان المصري قبل ثورة المهدي  
برهان وأخذوا يجبدون كل رأى خطر لهم فيها ويستخدمون مدو  
الحكومة المصرية في قضاء مآربهم وأطاعهم الإنكليزية .  
ومن ذلك أن الجنود المصريين كانوا يرسلون حملة أثر حمة بث  
العمود المصرى بين تلك القبائل فكانت لا تلقاهم إلا بالخضوع ولا  
تستسلمهم إلا بالحمارة وفي سنة ١٨٧٢ شخصت إحدى هذه الحملات على  
طريق أوغندا الى زنجبار هم ثاني في طريقها أقل عشرة حتى بلغت بحوم  
المملكة الزنجبارية فاستقبلت هناك بكل انشاشة وإيناس واطهر لها السكان  
ميلهم الى مخالصة الحكومة المصرية وحطى قائد الحملة المصرى بمقابلة  
ملك زنجبار فلقى من الأكرام والحمارة بين يديه أضعاف ما لقيه عند  
قواد التنوم فأظهر له الملك رغبته في مصادقة الحكومة المصرية وأنه  
يريد أن نظل مديوناً بالمعنى المصرى على شريطة أن يمنع أمبازا خدماً  
يضمن له السلطة عليها وأبدى له أسفا شديداً على كون قومه المصريين  
لم يعرفوا بلاده منذ زمن طويل . ثم أخبره أنه تابع لأمير المؤمنين وخدم  
الحرمين وأنه يحط بآسائه في كل بلاده وبعد ذلك عقد مع القائد المصرى  
اتفاقاً وقع عليه الإنسان ليعرضه القائد على حكومته المصرية حتى إذا  
اصدقته أصدر الأمر باتباعه وهذا نصه بحره .

### المادة الأولى :

أن تكون ملكة زنجبار تحت الحماية الإسلامية العثمانية المصرية  
ويكون الملك محصوراً بالتوارث بين ذرية الملك الحالي أو بين أسرته

وبإذنه ان امتياز الملك في ملكه يكون شبيها بامتياز سمو الخديوى  
اسماعيل باشا واسرته في مصر .

#### المادة الثانية :

ترسل الحكومة المصرية موظفين من قبلها ليقوموا بتأليف هيئة  
الحكومة في زنجبار وتنظيم المالية والجند طبقا للنظم المتبعة في  
الحكومة المصرية ولا يجوز تعيين مصرى لاية وطيفة كانت إذا وجد  
وحتى يقدر على القيام بها .

#### المادة الثالثة :

ترسل الحكومة المصرية مندوبين من اصداقها ورجالها الجذريين  
ليؤدوا كل المنظمات التي تسن في ملكة زنجبار بشأن إنشاء قطارات  
مالية وداخلية وحرية ووزارة المعارف ووزارة الاشغال ويكون  
التلاميذ المتخرجون من مدارس المملكة مقدمين على غيرهم في الترشيح  
للووظائف ولا يجوز لمصر أن تطلب عساكر من زنجبار إلا إذا حدثت  
حرب دينية بين امير المؤمنين وعدو آخر فيطلب هو حينئذ جتودا من  
زنجبار . ثم أن علائق زنجبار وصلات شؤونها كلها من الدول الأجنبية  
يكون عندنا وحلها على يد وزارة الخارجية المصرية .

#### المادة الرابعة :

لا يجوز للحكومة المصرية أن توظف في ملكة زنجبار احدا من

الأجانب الغير المسلمين إلا إذا كانوا من رعاياها إلا بأس حينئذ من منحهم وظائف .

### المادة الخامسة :

أن كل الأموال التي تحي من مملكة زنجبار تنفق في شؤونها وما يمي بعد ذلك تؤخذ الى الخزانة المصرية ويكون مصر ملزمة بصرف كل ازمة مائة أو حربية تصيب مملكة زنجبار .

### المادة السادسة :

ينفذ مفعول هذه بعد اطلاع خديوى مصر عليه واصدار أمره بقبولها .

وبعد عقد هذه المعاهدة نقل القائد راجما إلى حظ الأسنواء بعد أن تاب عنه أحد الضباط المصريين مسرورا بما نالت حكومته مبتهجا تكون هذه المعاهدة الراجحة ابرمت على يده ولكن نسي أن حكومته في غفلة من هذا الفوز المين وانها احلت في مكانها اصدقاءها الانجليز ولذا وجد انما هذه هؤلاء الأصدقاء آمنين تادمين على كونهم فرطوا في تسليم قيادة هذه الحامية إلى قائد مصرى ولم يولوا انجليزيا أو إيطاليا عيبها وايضا أنهم ليسوا بمفلسين إن فازت مصر بهذه الامته فقبضوا بأظافر النمر وبرائن الكاهن على تلك المعاهدة التي كادت ارواحهم نزهق لدى مطالعتها ومن غريب ما حدثته ان الحكمدار غردون أحد عذاره مدمسة وأراد أن يقتل بها نفسه لولا أن امسكه ومنعه الخواجا نوراني الايطالى وحقق

به الميو فردريك وعبرهم من الانجليز وماجورهم وكان يردد هذه العبارة [ ماذا يقول عنى قومي الانجليز إذا تم هذا الوفاق الذى جعلنى من انذل ابناء جلدتى ] وبعد أن امسكوه واخذوا يكتفون روعه ثاب إليه رشده الذى استله عامل الحسد والطمع. فبتأمل العقلاء وبقيسوا على هذه الحادثة غيرها مظاهر الشدة والانانية الذميمة التى استأثر بها الانجليز واشتهروا بها فى لعالمين بعد أن عدل غردون على مقارعة الدنيا أخذ هو وانصاره يسبرون طريقة يفسدون بها المعاهدة الزنجبارية فقرر رأيهم على أن يبدلوا الرتب والوظائف بنوع حساب لم حولهم من الموظفين ليكنتموا خبرها الرنان .

أما القائد الذى عقدها لحكموا أن لا بد من إيقاعه فى جنابة يحتم بها عمره لأنه كفر بنعم الانجليز وهم الذين ولوه قيادة تلك الخلة فادعوا عنيه أنه اشترى رقبته من الزوج وفى الحال قبض عليه وأودع فى السجن وامسك الحكماء غردون المعاهدة وكتب كتابا إلى سمو الخديوى اسماعيل باشا يقول فيه .

، ان ملك زنجبار قام فى وجه التفوذ المصرى واسر جماعة من التجار المصريين فأرسلنا حامية عسكرية لاستطلاع اخبارهم فتقيها لسوء الحظ بأشد ما يكون من العداء مقاومه طويلة حصرها فى إحدى النقاط فاصبحت على شفير الهلاك وإتقأرى أن المضل وسيلة لا نفاذها هى أن تهدى إليه هدية ثمينة وتودد إليه عمى يكون وراء توددنا ما فيه خلاص حاميتنا من بديهة .

به دره على هذه الحيلة وقد انطلقت على المصور له اسما عيل  
بش فامر بإرسال الهدية بنعت قيمتها ٢٠ ألف جنيه مصري واصحبها  
بكتاب منه إلى ملك زنجبار فاخذ الحكمدار غردون هذا الكتاب واطقه  
بالمعاهدة . .

وأرسلت الهدية مع المستر لو كس لسانح الانجيزى الذى كان حاملا  
كتبا تدل انها مرسله من الدولة الانجليزية إلى ملك زنجبار وتضمن تحذيرا  
له من وضع ممكنة تحت الحماية المصرية وبصالح عديدة من عباء السوء  
بالقدح فى الامانة إلى غير ذلك من الهجاء الذى لا يستطيع ايراده  
بالحرف الواحد وما ورد فيه أن مصر أنه بربره «ان كانت ملكة زنجبار  
ترغب الاعجاز إليها كان اخبارها وبالا وشوما والدليل على ذلك أن مصر  
تستخدم الأوروين فى بلادها ليدشوا القمدن فيها وعلى أثر هذا التدليس والتقليق  
كسب الانجليز مودة ملك زنجبار بأموال مصر وعدل هذا الملك عن  
نيته فى محاربتها وبذا انقضى بها وانسحبت اجتود المصرية من محوم زنجبار  
«دعوى انهم اخلفوا من الأسر وهكذا اختتم الطمع الانجيزى هذه  
الرواية المخزبة التى لا تظن أن أحدا سمع بها وليته لم يسمع . .

ونعاق نحن على هذه الرواية فنقول أن اسما عيل سيرهك باشا قد  
نقل هذه المعاهدة فى كتابه ( حقائق الأخبار عن دول البحار ) ولكنه  
لم يستطع الوصول إلى معرفة اسم القائد المصرى الذى خرج بالخمسة إلى زنجبار  
وعهد هذه المعاهدة مع « ملكها » ومع أنه قد نغذر علينا عن كذالك

واقف على حقيقة ما جاء بها من وقائع مفصلة من الثابت أن الخديوى  
 ا. ع. قد أرسل في عام ١٨٧٦ حملة إلى مصب نهر الجوبة لإنشاء مركز  
 بطر على نحبض احدى مهمه حاميته مراقبة نشاط تجارة الرقيق في  
 الساحل الاقربى الشرقى ولكن هذه الحملة لم تثبت أن الفسحيت نتيجة  
 لاحتراح سيد برفق سلطان زنجبار بتعريض من الاسكانيين وادعائه  
 أن لأرض التي رلت بها الحملة كانت من أملاكه . ومن كالت المعروف أن  
 غردون اثنا عشره كان رلى من أشار على الخديوى بإرسال هذه الحملة . على  
 أن يخرج من ماحته من "بلادو عاصمة مديرية خط الاستواء لمقابلة احية  
 ومساعدتها ولكنه لم يفعل . ومن المحتمل أن يكون عقد المعاهدة السابقة  
 قد جرت قبل خروج هذه الحملة من مصر وقيامها من التوبس وأن تكون  
 هذه الحملة من نتائج عقد المعاهدة . وفصلا عن ذلك هناك من الكتاب  
 من يصرح غردون في الذهاب إلى الساحل الاقربى الشرقى إلى  
 رغبته المصرية في تعطيل الخوذ المصرية في هذه الجهات وحدمة المصالح  
 الاسكانية . وقد يكون عدم خروج غردون من "بلادو بسبب هذه  
 المعاهدة . بيد أن كل هذه الأقوال ليست سوى احتمالات . وإنسانى  
 للحجبه وتاريخ نرى لزاما علينا أن نذكر أن وقف غردون  
 من مسألة نهر الجوبا وزنجبار على وجه الخصوص كان سليما في جهته  
 ونماضيه أما رواية صاحب السودان المصرى والانجليزى . قال أن  
 ما من عليه هو أن أهل السودان ومن عاصر منهم هذه الحوادث كانوا  
 يرون في كل هذا الاسكاني خطة مبيتة ومؤامرة حيكوا اطرافها من زمر  
 ضاربيل كان الغرض منها تمويش دعائم الحكم المصرى في السودان وافتتاح  
 أطراف المملكة المصرية في افريقيا ثم بدأ ابتلاع السودان منه في  
 النهاية .



## الفصل الرابع

### إبصال الرق ومحاربة الإسترقاق

تمهيد . تاريخ اليهودية و الرق - الرق في مختلف الأدب . الرق في الولايات المتحدة . الفوائد الدينية و أمريكا . منشا الدعوة لإبصال الرق . حرب الشمال للجنوب من أجل إبصال الرق . لاء كين الجاسية و أمريكا و أفريقيا . الاندماج الجسدي بين شعوب السود

قال أن المسيح عنه سلام قابل الشيطان يوماً في السوق أعانه ووبخه على سلوكه السيء في بث الفتن وخلق المشاكل والمتاعب بين الناس

فاجابه الشيطان . الأمر على عكس ما فهم المسيح ثم تناول قطعة من الخلوى وأصغتها بالخناظر فودعت عليها ذبابة ، فرأت سحابة هذه الذبابة فوثبت عليها ، فشاهدت قطعة تلك السحابة تقتلتها ، وكان أحد الجنود البريطانيين يسير في ذلك السوق مع كلبه ، فوثب الكلب على القطعة فقتلها فقتل صاحب القطعة الكلب فقتل الجندي البريطاني صاحب القطعة . ولم يمض وقت طويل حتى وقع الاضطراب واستدعى اخلاق المدافع بالتفت الشيطان إلى السيد المسيح وقال :

« هل سمع سيدي صوت المدافع ورأى فكها وأنا لم أصنع شيئاً لإحضرارها ؟ »

أما الإنكار فقد كانت حلولهم لتذرع بدعوة إبطال الرق وكل  
سوقهم "سودان" - وابن مكر شيطان ، من تحت لبريطاني ؟؟

في مقدمة لمقطع التي يتلاقى عندها علم والدين ما نقول به نصريه  
التطور أن الناس كلهم من أصل واحد - إذ الأرجح أن يكون هناك  
نوع بشري واحد بدأ ظهوره في آسيا أو في غيرها بعد أن قطعت الأحياء  
شوطاً بعيداً في سلم التطور . . ثم حدث التنوع والاختلاف بين البشر  
باختلاف اتجاه الجماعات وتباين البقاع في استوطنتها أزماماً طويلاً .  
إذ أن البيئة الطبيعية - كما لا يخفى ، وما تلك البيئة من مؤثرات المناخ  
والغذاء وأسلوب العيش وغيرها أثراً بالفاً في تشكيل الأجسام وتنوع  
الألوان وفصلا عن ذلك عديده أثراً في العادات والخلق . . وبذلك  
تنوعت السلالات البشرية وظهر بينها أقوام من البيض والسود والهمبر  
والخمر - ويرجع ذلك التنوع إلى ما قبل تاريخ الإنسان المعروف  
بزمن بعيد .

أما السود فهم الذين لوحث شمس المظلة الحارة بشرتهم وميزاتهم  
"لا اعتبارات الجسدية الوراثية عن غيرهم ، ومآلات مؤثرات بيئتهم  
وعملها بينهم وبين الحضرة والاندماج في الأمم وكان لذلك الرزق  
الميسور الذي تفيض به لغايات والمراعى حولهم . وذلك الجو المرحق  
"تشديد الحرارة ما حملهم على التراضي في الكد أو التفتن في القاس سبل  
"عيش أو الاهتمام المستقبل فهم يعيشون في الحاضرة قانعين بالكفاف

يحويون حياة ساذجة فنية مستلهمين بتقاليد الشعوب الظواهر الطبيعية  
 بالسحر وفعل الأدواح ، ويستوطن الزنوج بعض أنحاء المنطقة الحارة  
 في إفريقيا وجنوب آسيا . يعيش منهم نحو ١٥ مليوناً في أمريكا وهؤلاء  
 يرجع أصلهم إلى إفريقيا . أما زوج إفريقيا فسلالات مختلطة يجمع بينها  
 سواد اللون ، ومن أشهر السلالات تروا ، سلالة السود أصحاب القامة  
 الطويلة والرأس المستقيمة واشعة البضة والاذن الاكبر والشمع  
 الممعل ، أولئك الذين يقطنون المنصعة الممتدة من المحيط الاطلسي إلى  
 أنال بيل الأبيض . ثم الأقزام الذين يعيشون في حوض الكونغو  
 والباتوا وهم خليط من أسود والحاميين قدماء وينشرون في المنطقة  
 الجنوبية وكذلك سكان صحراء كهارى وهم البشمان و بونزون  
 الآخرون في الغند والافراس . ثم نقولة والزبد والجل والموسه .  
 وزوج إفريقيا بن جميع ذنوح العالم تحكمهم وتسودهم الشعوب البيضاء  
 بما في ذلك جمهورية ليبيريا في إفريقيا الغربية وهي الجمهورية التي أسستها  
 الولايات المتحدة الأمريكية ليهاجر إليها زوجها اذا شاموا الاستقلال  
 والبعد عن المشاكل . وهذه الجمهورية تخضع في الواقع للحماية  
 الأمريكية وتحكم حكما غير مباشر وليس لها من الاستقلال إلا الاسم .

وقد شرح كتاب مانو ، أحد كتب الهند المقدسة مذهب البراهمة  
 وثأف المدنية الآرية لجناء فيه أن أصل العبد سبعة . أسير الحرب ،  
 ومعدم رخص لم يكفل معاشه . وابن العبد المولود في بيت المولى ، والفرد  
 مهدى هدية أو مبيعا بيعاً ، والمنقل بالإرث عن الوالد إلى الولد ،

والاستعباد عقوبة له على جناية ارتكباها ، والمستعد لعجزه عن تأدية دين أو صريية أو غرامة . وسواء ألم هذا الإحصاء بكل الأصول أو أشغل بعضها فالعبودية قديمة كالحرب والحروب من خواص الخليعة وثقت تحكمت طبقة الأحرار في مصائر طبقة العبيد السود ودخل هؤلاء الآخرون في حرمة الأحرار منذ بدأ العمران .

ويقول هربرت سبنسر أن أول العبيد هم أسرى الحرب وقد جرت العادة بأن يأكلهم الغالب في ولائم النصر ، وأنه عندما كثر عددهم أجل قتل بعضهم للذئذ بلحومهم المشوية في ولجة أليه يصير النصر الواحد نصريين . واستخدم العبيد خلال هذه الفترة ، فأثار استخدامهم انبياء السادة المنتصرين عليهم إلا أن حياة الأمير أصبح للأغالب من موته .

وعندما نزلت كثرائع أبحاث تشريعة اليهودية أن يملك الناس بعضهم بعضاً وأن يستعمدوا أخاهم ليهودي ستة أعوام أما غير اليهودي ويظل في العبودية حتى الموت .

ولا يفهم ما ورد في إنجيل يوحنا فرغم للسيد المسيح عليه السلام . نحن لم نستعبد لأحد قط ، وهم حاصدون يومذاك للاحتلال الروماني وقد بيعوا في أسرى أورشليم ، وجاءهم في كتاباتهم بأنهم استعبدوا سبع مرات في أرض الميعاد . ومن يحمل بيع عبس بكوربه ليعقوب باكتة عدس أي بيع كل حقوقه وقبل ليهودية نذراويه ؟ ولكن العرب الذين ينسبون إلى عبسوكا . يحون بسيادتهم وعظمهم هشوة السلف

المجتمع . وقد باع سو يعقوب أخاهم يوسف للتجار وباعه هؤلاء في مصر خدومه في السنين الجوانح وجر اليها ذوبه فنهى بهم الأمر الى الترق ولم يكن ليطلق سراخهم ثولا الضربات . تعشر الساعة انصبت كما ترويه الكتب المقدسة .

أم يكن النصرانية والاسلام مر أثر في لقلوب لتحملا على الرحمة والعتف ؟ لا شك في أن الدين ايا كان له تأثير ظاهر وأماك إذا أصبحت العوامل تكرى ذات الأثر اليسع في تكيف النفوس لوجدت الدين في مقدمة هذه العوامل . وقد أثبت سيد المسيح تلاميذه من بين المتأخرين ومضى يهذى بالمساراة والتمهيد وحسب الأعداء لأن الجميع أبناء الله يدعونه وكان الإسلام من الناحية العملية أكثر عازا إلى حقائق الأمور ووجد اليهودية عند شعوب صيفه ولكنه لظلمها إيمانا تلطيف وعن مقربه من تعالجه العافية ونصائحه الحكيمة . أنه أوصى بالبنيم والضميم وابن السبيل والرفقة .

وكان الطائفة الأولى التي العرب ذاتها فقد بكى ( صلعم ) عبده الميت كما يبكي الكريم صديقا عزيزا . فكانت حال العبد في الإسلام بعض حالات أمثاله . أما الاعتناق والدعوة إليه فمن أيجر صمحات التاريخ المحمدي

والواقع أن العبودية عند المسلمين أحب منها عند غيرهم . ترى بين العبد والمولى تبادل أمانة ورعاية وصلة رحم ولعبد أن يتزوج أرملة

مبيده وينشئ عائلته وحرية مكفولة ولعبده عندهم يقومون بشئ الأعمال  
والبناء للخدمة المنزلية والرجاء يملحون ويزرعون ويرعون الماشية  
ويشتغلون بالأعمال الحثينة والصعبة المتأثرون يقومون على خدمة التصريف  
وإكرامهم ويعدون المركبات ويراقبون ابن مولاهم في الصيد وفي الزهرة  
ويشاهرونه دروسه وألعابهم كأنهم المالك تصدروا في بعض ليوت  
شرقة .

وهكذا عومل لعبيد رفق فأحبوا مواليتهم . إن غاب أحدهم يوما  
تألموا لفراقه وانتظروه باكين مسرورين عاد أفلحوا يكدون يده ووجهه  
فرحين مستبشرين ، وإذا اكتسبوا ثقتهم بحسن سلوكهم ورجاحة عقلهم  
أطلق سبدهم أيديهم في ماله وشئونه وحفظ لهم في نفسه مكانة طاهرة  
فزوجهم من بناته وصاروا أحب الناس وأمرهم إليه . وآية ذلك . أن  
عالمات الأيوبيين في مصر أنشأوا ملكا وأسسوا دولة عاشت طويلا .

وقد ظلت مصر والشام في حوزة المماليك الذين اتاعهم السلطان  
الفتح نجم الدين أيوب مدة قرن وثلاث قرن تقريبا من الزمان .

وصار الناس في مصر والشام والسودان أما عبيدا وأما موالى  
ومحب على الإنسان أن يجعل حدا فاصلا بين العبد والمولى لأنه حدث  
بعض الزواج واتجهيد وانتشار التعليم أن وجد بين العبد من صاروا  
مولى كما وجد بينهم من هم عبيد ومولى في آن واحد .

وعندما وصل محمد علي باشا الى دريكة الولاية كان البكوات اليه بك  
هم أصحاب السلطة الفعلية في مصر . وكان الرق جزء من النظام الاجتماعي  
والاقتصادي السائد في البلاد . وقد وصف المعاصرون الأجانب ما يسمونه  
الرقيق ( أو العبد ) من رعاية وعناية فائقتين من جديب أسيادهم .  
وعندما دخل المصريون السودان كان الرق متغلغلا كدكات في كيان تلك  
البلاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وكانت مهمة محمد علي في واقع  
الامر تقييد الرق في تلك الديار بصورة تساعد مساعدة فعلة على كبح  
بهاج الخمسين وتخفيف ريلات الإنسانية بإبطال الاسترقاق وتبيـ  
حين العيش النافع للرقيق بالخدمة في الجيش والحقل والمصنع . ولم تعرف  
مصر منذ محمد علي وخلفائه أية فوارق جنسية تفضل بين العبيد السود  
وبين سائر أبناء الامة بسبب الامتزاج والاندماج وبغير تفرقة عنصرية  
حتى أنه لو استطلنا الزمن لفضى على الفوارق الجنسية جميعها وحرج  
عنصر قوى جديد كالعنصر البرازيلي الذي هو نتيجة الاحتلال بين  
البرتغاليين البيض والهنود احمرء والافريقيين السود أو كما حدث في شيلي  
حيث تبلغ نسبة العنصر الخليط نحو ستين في المائة وفي بيرو حيث تبلغ  
نحو خمسة وثلاثين في المائة والقارىء الكريم أن يقابل بين هذه الحالات  
جميعا وبين حالة الزوج في الولايات المتحدة الأمريكية الذي يلدون  
نحو عشرين مليوناً فإن علاقة الزوج بالبيض هناك قصة مؤلمة  
مؤلمة تؤلف جزءاً هاماً من تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية وحولامة  
هذه القصة . أنه لما عزم الزعماء الأمريكيون أن يثوروا على إنجلترا في

الثالث الأخير من القرن الثامن عشر بحثوا عن أقدس الحقوق الانسانية واتخذوها شعارا لهم ، مصرحوا في اعلان استقلالهم أن الحرية حق من حقوق لبشر الاساسية وأن قوة الحكومة مستمدة من قوة قبول المحكومين لسلطانها فسوغوا بذلك ثورتهم على الاسكيز مدأناه مادان النصر لهم حتى بسوا هذه المبادئ ، انتديه وكيلا فريقتا من البشر وهم الزوج مالاغلال وكان الجشع والاثانية رائد الأحزاب السياسية الكبيرة وكانت هذه تزيده لرق ونحى مسكنه وقد ضلت الحال على ذلك نحو يفت وسبعين سنة حتى اذا تأسس حزب الجمهوريين فارم هذا الحرب الجديد دخول الرفيق الأسود في غير تلك الولايات فلي كان موجودا بها فعلا في ذلك احين وكان هذا الحزب يلقى معارضة شديدة من جانب الحزب الديمقراطي القديم في الولايات الجنوبية خصوصا ذلك بأن أعضاء الحزب الديمقراطي في الجنوب كانوا يرمون الى تعميم الرق في كل البلاد بينما أصر أعضاء في الولايات الشمالية على أن يترك لكل ولاية الحق في تقرير شرائعها فيما يتعلق بمسائل الرفيق وكان يفضل نشاط الجمهوريين أن بدأ لرق الأسود يزول وبدأ رويدا من بعض ولايات الشمال وبدأ يتسع نطاق المناقشت في مر إلغاء الرق هموما ولكن بعض الولايات الجنوبية ما لبثت حتى مدت بالامتناع عن الاتحاد ، إذا ألقى الرق بعد فريق من الزعماء ، وفاداة في توفيق بين الولايات وإزالة أسباب الخلاف بينها بأن أقروا خط فاصلا بين الحرية والرق وقسموا الولايات الى حرة وأخرى تبهج لرق .



زعم المصلحون الأمر بكيون أن ذلك الرق الأسود سوف يزل  
ينضى الزمن غير أن الأمريكان ما لبثوا حتى اعتادوا وجوده واعتبروه  
شرا لا بد منه ثم زادت أهمية ترقين من الوجهة الاقتصادية حينما اتسع  
نطاق زراعة القطن في الولايات الجنوبية وزاد تصديره إلى أوروبا  
فكثرت الأرباح وعلى ذلك فقد تشبث أهل الولايات الجنوبية بنظام  
الرق وقد زادهم صادا على عنادهم ظهور الجمعيات الإصلاحية التي أسسها  
في الشمال ( وليم جارسون ) وقد بدأت هذه تنادي بعنق العبيد وكانت  
تدعى في الرق جرما يرتكب ولا يلحق بإنسان شريف أن يرضى به .

وما أن انتخب ابراهام لنكولن رئيسا للولايات المتحدة عام ١٨٦١  
وكان من كبار مؤيدي إلغاء الرق وتحرير العبيد حتى اشتد استياء  
أهل الجنوب وجاهدوا بالعصيان والانفصال عن الشمال وكوّنوا  
دولة كنفدرالية ، في الجنوب انتخبوا جفرسون رئيسا لها فأعلن لنكولن  
في خطبة الرئاسة بأن الوحدة الأمريكية لا يمكن أن نفهم عراها وأن  
كل عمل عاينته نهضاء عليها باطل ثم صرح بعزم حكومته على الدفاع عن  
حقوقها وسيطتها وإن اقتضى ذلك استخدام القوة ثم حاول ( لنكولن )  
أن يحافض على الوحدة من غير أن يلجأ إلى قتال ولكنه أخفق في مساعيه  
بسبب إصرار زعماء الجنوب على تمسكهم بموقفهم وبدأت الحرب بين  
أهل الشمال والجنوب واتسع نطاقها وتطاول شروها فكانت الحرب  
اللاهبة الأمريكية المعروفة التي دامت نحو أربع سنوات وإلى انتهت  
بمؤازة أهل الشمال عام ١٨٦٥ بعد أن قتل في معاركها نحو مليون نسمة

ونصيب أكثر من نصف مليون بإصابات مختلفة وكان من نتائج تلك الحرب الأهلية أن قضى على الرق نهائياً باعتراف أهل الجنوب أنفسهم بانه تم وأحل على الدستور تعديل يتخلى بتحرير الرق في جميع الولايات المتحدة الأمريكية غير أن إلغاء الرق أمر والوصول إلى حل لمعضلة الزنوج بأمريكا أمر آخر .

حقيقه يتساوى ارنوج في الولايات المتحدة الأمريكية مع البيض في الحقوق قانوناً ولكنهم يعاملون معاملة كالمجموعات ذات النفع القليل حيث يحرم البيض إلى التدخل من ارنوج بشئ الوسائل وبخاصة إذا أسوأ منهم شراً وكاد يكون وسيلة الأمريكان في ذلك إرهاب أرواح السود دون أية عاكمة . إلا أنقى سوء الحظ بأحد هؤلاء المناكيد في أبيهم على أثر جريمة ارتكبت أو شرف لحق برجل أو امرأة من البيض ووقع الاتهام على كاهن زيجي من الزنوج . ومع أن الدستور الأمريكي قد سارى بين جميع أفراد الشعب فيما له من حقوق وما عليه من واجبات فإن بعض الولايات الجنوبية مثل (نيو أورليانس) قد حرمت قوايتها بحودة الزنوج للبيض في مساكنهم فلا يجوز لرجل أسود أن يتخذ سكناً في حي يسكنه البيض ولا يحق لرجل أبيض أن يخطب في حي مأهول بالزنوج وتعود أسباب ذلك للموراثي المستحكم بين السود والبيض بأمريكا إلى أسباب عدة .

أولاً : أن الاسود إذا تزوج من فتاة بيضاء جاء مجلبها أيضاً أو

أسوداً أو وسطاً بينهما فإذا تزوج أحد الأمرين كان البيض من أبنه الزنج  
بيضاء فإنهما قد يفسدان سلالة سوداء طبقاً لقوانين الوراثة .

ثانياً : أن العامل الزنجي يزاول هناك الأعمال الحفيرة وأهمها  
الوصيفة التي يعافها البيض . والزنجي يرضى بالأجر القليل الذي لا يرضى  
به العمال البيض .

ثالثاً : أن الأسود لا يعترف بجداً تحدد أصلهم كالحيتان يكثر  
من الأولاد ولما كانت تتكامل بذلك الحكومة حيث لا يستطيع الانفاق  
على تعليمهم وفي هذا إرهاب لمزائنتها ويسبب إلى فرض القيود الكثيرة  
وليس هناك أى أمل في إزالة هذا التمييز القديم والعداء المستحكم بين  
البيض والسود وأمرهما على الرغم مما وصل إليه الأمر يصعبون من  
حضارة ورفق .

وفي إفريقيا الجنوبية لا تقل مشكلة البيض والسود في خلعورتها  
عن مثيلاتها في العالم الجديد ، وتزداد أصولها إلى الوقت الذي بدأ  
فيه الهولنديون يستعمرون جنوب إفريقيا منذ ثلاثة قرون تقريباً  
وكان يقطن هذا الجزء من القارة ، قبائل ، البانتو ، الشبان ،  
والهوتشون فاضطرت تلك القبائل إلى الارتحال نحو الشمال تدريجياً  
بسبب ضغط البيض عليها . ثم أخذت القبائل تتكاثر على مر السنين كما  
صارت تزداد صلاتها وريداً رويداً بالمدن التي أنشأها البيض ، فمع بضع  
سنوات حتى ظهرت مشاكل عدة كان سببها أن أقبية من البيض

مرر تستعمر اقلية تقطنه اكثرية من السود وتنحكم في مصائر هذه الاكثرية ثم رأت خطورة هذه المشاكل عندما اشتد النزاع بين السود البيض وهم اول من استعمر تلك الجهات وبين الإنكليز حينما صعدوا إلى أعالي أطوار بنيم افريقية الجنوبية ، وكان للاعتبارات الاقتصادية شأن صاير في الامر عندما شرع لأن جوير الذين يعرفون الزراعة ويربون المواشي كانوا قد درجوا على اقتناء الرقيق الاسود ليعمل في مزارعهم . بينا الإنكليز يحاربون مبدأ الرق ويكافون النخاسة وتجارة الرقيق وفضلا عن ذلك فان المرأ لا يسعه أن يترك موضوع الزحف في الولايات المتحدة الأمريكية وافريقية الجنوبية دون أن يقرر حقيقة تاريخية هي أن العلاقة بين السود والبيض في هذه الجهات ، كانت علاقة استغلال مع أقصى حدود لسوء . استغلال البيض للسود إلى جانب احتقارهم وازديادهم وتصييق سبل حيش عليهم وازدياد أرواحهم .

فانه بعد أن ذاع اكتشاف أمريكا أخذت جموع المهاجرين الأوروبيين تدفق على القارة الجديدة من كل حذب وصوب وشرع هؤلاء يؤسسون المستعمرات التي اتسعت رقعتها مريضا فامتدت على طول الشاطئ الشرقي ، وتوغلت في داخل البلاد وعندما احكم الإنكليز سيطرتهم على هذه الولايات ، الجديدة إزدادت المستعمرات اتساعا كبيرا وصحب هذا الاتساع ظهور الفوارق الجغرافية بين مختلف الولايات إذا كانت الجهات الشمالية أكثر موافقة لسكن المهاجرين الأوروبيين بسبب مناخها الملائم لهم وكان هؤلاء يزرعون بها الحبوب ويربون

الاعسام أما الجهات الجنوبية فهي شديدة الحرارة اعتمد أهلهم على زراعة  
الدخان والتبغ والمصوب وعلى ذلك فقد عمد المستعمرون في الولايات  
الجنوبية الى تسخير لسان الاصليين أى الهنود الحمر وارهأفهم اذهابا  
شديدا حتى كادوا يبدونهم جميعا وعدت اضطروا الى جنب الزوج  
من افرينيا للعمل في مزارعهم الواسعة فتألفت شركات من الاسكيز  
والهولنديين الذين استخدموا القضاة والحظافة ، لصيد الزنوج ثم  
تألفت شركات ملاحه خل هؤلاء النساء وتفلهم من افرينيا الى امريكا  
مقيدين بالسلاسل والاعلال وعلى الرغم من أن الدين المسيحى يحض عن  
لواة فان هؤلاء السود لم يكونوا في نظر المستعمر الاوردى سوى ادم  
واعنام يرمقونهم بعين المراهة والاحتقار ولا يقيمون لحياتهم وزنا  
ومع أن موارد ثروة الاميريكية تتوقف على ما يبذلون من جهود وط  
قد طالوا منهوذين ، ولو الى الرق وهناك دبعة واحدة في الجنوب  
لحدث انقلاب خطير في حياة البلاد الاقتصادية .

وواقع الامر أن هؤلاء الزنوج كانوا يعيشون في عز دائم وجهل  
مطبق لا يلقون من (أسيادهم) الاوربيين غير الارحراء والمهانة فلا يعيش  
الاسود بين الاوربيين عيشة الناس بل عيشة الدواب الى كره خرب  
حياتها عن عمل مالا ينفعها ، والاسود لا يثنان من القوت واقتناء  
وراحة إلا ذلك القدر الضرورى الذى لا يستطيع بدونه الاسود ان  
على لعمل ، وهو إذا أراد أن يعيش من الأرض التى يشتغل عليها كان  
لزاما عليه أن يجيب كل مطالب الملاك ، فان فخر الأرض واقبل عن

العمل في المصانع والمعامل وقع في رفق أغنياء آخرين من البيض يقوم  
بخدمتهم طول حياته وبعض ساعات طويلة في عمل آلي متجاسس مضر  
بصحته متلف لحياهه . وإن هو استوطن الأرض وسد عوزة واكتسب  
من كده فإن أحدا لن يتركه وشأنه بل سربان ما يجد أنه مطالب برفع  
لضرائب فإذا تأخر في الدفع وسداد الضريبة خرجت الجنود فحارته  
حتى يخرج أو يقتل . . . أو يرغم إرغاماً على العمل المرهق المستمر  
حتى تحصل الحكومة منه على كل ما تريد وتطلب وهكذا على حد قول  
أحد الكتاب الانكليز : —

« يبتدىء عمر الرجل الأبيض من مطلع الشمس وينتهي

عند غروبها . أما الرجل الأسود فليس لعمله بداية ولا نهاية »

غير أن هذه المآسى ما كانت تستمر طويلاً دون أن يتحرك ضمير  
الإنسانية ويتصدى المصلحون الاجتماعيون لمعالجة مشكلة الزوج  
والرق عموماً .

ومن طريف ما قرأت في هذا الموضوع ما كتبه أحد المفكرين  
الأحرار ، شارلس براذلو ، حيث يقول مامتهاً أنه لم يلبث أن أتى دور  
تحرير العبيد من الرق بفضل كتابات الفلاسفة ونتيجة لتفكيرهم ، حتى  
لا أعرف أن دياراً من الأديان الدائمة حرم الرق في الماضي ونهى عنه  
وقتاً . ظل الدين المسيحي يؤيد العبودية حتى أن ( كتاب العهد القديم )

صادق علم' بقوانين خاصة بها ولم يعلن ( كتاب العهد الجديد ) بطلانها  
ولم تبدأ حركة التحرير إلا في ثلاث الأواخر من ثمرين الماضي ولا  
يستطيع مسيحي أن ينكر أن حركة أبطال الرق في أمريكا الشمالية لم تكن  
مصدوعة عنيفة وعمادا مريرا من رجاء اندين في أوليات تخنعة وأن  
الانجيل ومسيح الوعد ونفوذ الكذبة كل أولئك مضطرون ملات العبيد  
وبقاومون إلغاء الرق .

لقد ضل العالم المسيحي يقتصر العبيد ويتجر بهم مدة ثمانمائة وألف  
سنة ولقد كان شارل الخامس أول عامل راجت على بدء تجارة  
العبيد بين العالمين — القديم والجديد — وعند مائه منه أو أقل كانت  
مدينتا برستون ولينكولن المشهورتين بالورع والقوى في ذلك الوقت  
محطات معزجة لأوارد والصادر من الرقيق حتى تمت ثروتها واتسعت  
تجارتهما للأدوية من البيض والسود على السواء . وقتئذ ان ذلك فقد  
كان للنصارى من ليون في القرن التاسع يبيعون الرقيق إلى العرب . وفي  
القرن الحادى عشر لليلاد كانت تباع العاهرات عتق بيع الرقيق في أسواق  
مدينة روما وكان الربح المتحصل من بيعهن تستوفى عليه الكسبية .  
وعندها قام ( وليام ويله مرش ) بكامح في سبيل أبطال الرق قال معاصروه  
أن مسيحيتهم مشعة بروح الإلحاد لأنه كعطالبا إلغاء الرق كان في نظرهم  
لا يؤمن بما أت به الكتب المقدسة . وذكر على وجه الخصوص سمر  
الخروج ( الأصحاح الحادى عشر ) وسفر اللاويين ( الأصحاح الخامس

عشرة ) فقد حدث يوم ١٨ فبراير سنة ١٧٩٦ ان وقف وايم بليرفوردس في مجلس العموم البريطاني يقول ان فرنسا الملحمة والتي انتشرت بها العوصى ( بسبب الثورة المشهورة بها ) قد قضت على الاسرقاق ومنعت الحرية الاخرين يدنا لانزال انكارا مبررة عن الاسرقاق ومحاولة بنظام بتد بالنسوة والعنف ومن يتخاها العصور البائدة . على انه ما نادى بليرفوردس بضرورة ابطال الرق حتى يبين له ان المحاكم الانجليزية وما لها من سلطان قضائي كبير ، ومحاسن اللاهوت الاسقفية وما لها من نفوذ ديني شامل كانت جميعها منحتزاة للرقوق صده ومعارضة ونسفيه آرائه وأبدى جورج الثالث وهو الملك المدين اشتهاره بظاهر من هذه الجناة : بجرأة المطالبة بابطال الرق فضلا عن ذلك فقد عارض مجلس اللوردات في منح الحرية لأميد المكيد .

ومنذ ثيف وستين سنة قامت جماعات التبشير المسيحية بالدعوة إلى الحرية بين عبيد ( دسراوه ) وهي المستعمرة التي تحكمها دولة انكلترا المسيحية فلم يكن نصيب أعضاء هذه الجمعيات سوى المحاكم أمام قصص مسيحيين — عيقتهم الحكومة الانكليزية في هذه المناصب — وصدر الحكم على هؤلاء المبشرين بأهم مجرمون عصاة جريرتهم للتبشير بين العبيد بالمتن والحرية . وقد اتهم أحد المبشرين عند محاكمته في ( دسراوه ) أمام محكمة عسكرية مركبة من أفراد مسيحيين بأنه يحاول تخريب بين العبيد على كره أسيادهم ودعت في نفوسهم غم الرضى وبشيع روح التمرد والتأمر والكرهية ضد أسيادهم الشرعيين ، فقضت المحكمة باعدام ذلك المبشر



المطالب بإلغاء الرق : شتقاً و أن يطل مطلقاً في حين انشققه حتى يزهق  
دروحه . وهؤلاء القضاة كانوا من أعضاء الكنيسة أما المنشرون  
فكان من المطالبين بالاصلاح والمنادين بتحرير الجلس البشري من  
العبودية .

وفي سنة ١٨٢٣ نشرت الجريدة الرسمية في ( دمراره ) أمراً فيه  
ما نصه :

« نحن لانسمح لاي واعظ ديني بأن يعمل على تدوير أذهان عبيدنا ،  
« الذين هم ملك لنا باعتراف القانون إلا أنبيع لهم في الوقت نفسه أن ،  
« إسقارهم ومسيحيتهم لا تمنع بتاتاً من بقائهم عبيداً لنا أبداً الدهر . »

تلك قصة محاولة إبطال الرق في العالم الغربي المنحضر وفي الدنيا  
الجديدة . ثم في تلك الأصغاع التي وصل إليها نفوذ المستعمرين البيش  
في افارة الافريقية . وهي قصة تختلف إختلافاً كبيراً في جوهرها ونماذجها  
عنما يحدثنا به المعاصرون عن الرق وحال الرقيق عموماً في مصر والسودان  
في عهد محمد علي باشا وحلفائه . وآية ذلك ما كتبه الدكتور هادن بمثل  
جماعة مكافحة الرق البريطانية الذي زار مصر في أيام محمد علي اسكبي .  
فكان مما قاله :

« أن حالة العبيد في رادى النيل لتفصل حالتهم في أي دولة مسيحية ،  
« بدرجة كبيرة ، وينسب في العادة حسن معاملة العبيد في البلاد الإسلامية ،  
« إلى سماحة الدين الإسلامي ذلك أن من تمانيه الرحمة بالناس ومعاملة ،

« العبد بالخسنى واعتبارهم إخواناً لا سيدهم وإعتبار الأسياد مدونين ،  
« عنهم أمام الله . »

ويؤيد هذا القول ما جاء في خطاب لشقيقة المعاصر الاسكندري  
E . W . Lane ( لين ) صاحب المؤلف المشهور عن عادات المصريين  
وأخلاقهم وطرق معاشهم أمام محمد علي ، وقد ذكرت هذه سيدة مصر  
مع نخمها فذلك : —

« أن كثيرين من الذين عوا من أحضان أمهاتهم ورعاية آبائهم وهم ،  
« صغار يحدون نبت من يشتردهم حنان الأم وشفقة الأب ويرقلون ،  
« ثياب غالية ، ولا يكون مالك وطاب في بيوت أسباده ويستعوف بحرية ،  
« شدهش لها الآن . »

وأواقع أن الرق في السودان أقرب وأدنى إلى الإصلاح منه إلى  
سبوبة والسبب في ذلك أن العبد الذي يدخل في حوزة سيده لا يلبث حتى  
يصبح بعد مدة قصيرة من الموالى لآله متى تعلم العربية وكيف يتوصلاً  
ويصلى ويقرأ الفاتحة وينطق بالشهادتين ثبت إسلامه من المعروف  
إن الإسلام يحرم استعباد المسلم لأخيه المسلم ولا يفرق بين العربي والعجمي  
في ذلك .

ومعظم زواج السودان يعيشون على جابي النبل الأبيض وينفقون  
في جهات بحر الغزال وبحر الجبل وبحر الراف والسوينا والبيور أحد  
رواد أشهر الأحير وبحر العرب وصحراء اليوم الواقعة إلى الجنوب

الغربي عن مديرتي دارفور وبحر الغزال وهم من الفرنيت واليور والجل  
والأنوك والندسكا والذوير والشك والجاور الخ .

وكانت الأساليب التي إتبعها محمد علي باشا وخلفاؤه من بعده في  
إتبع له أرفق تهدف إلى القضاء على تفرق الجمسية وتعمل من أجل خلق  
وحدة متماسكة من أبناء وادي النيل ختم المساواة بين الجميع في الحقوق  
واتراحيات فبعد أن لا إلى تجنب الندسكا والشك في ملك لجيش المصري  
واستخدم منهم أعدادا عديدة في شتى مصالح الحكومة ثم عمل على إعادتهم  
إلى بلادهم بعد تهديدهم وتدريبهم حتى يفشروا ألوية الحضارة بين عشائهم  
وهكذا أمكن بعد مضي حوالي ثلاثين سنة أن تالف من هاتين القبيلتين  
( الندسكا والشك ) مديرية فاشودة وقد أنعمت الحكومة المصرية على  
( كيكوم ) ملك أي ، ملك الشك ، بارتبة كناية واستمر كيكوم مقبلا على  
ولائه للحكم المصري حتى قتله المهدي عند ما وافق كيكوم حملة راشد ملك  
هيس ضد أنصار المهدي وأتبعه . وكذلك كان حال قبيلة الندسكار هي  
نازلة على الضفة الشرقية من النيل الأبيض وإسم مكها ( يول كور )  
وأكب أولاده الحاج عيسى يول الذي هرب من ظلم الانجليز وقصد إلى  
مصر وبعد أن حضر إلى مصر ذهب إلى مكة لتأدية الحج وعاد بعد تأدية  
الفريضة ثم التحق بالوفد السوداني ممثلا لقبائل الجنوب تحت رئاسة  
الاستاذ الكبير إسماعيل الأزهرى .

وحسنت حدة الشك والندسكا فلبس أهلها الملابس وسترورا عورتهم  
ولم يشتهروا بصيد التماسح وفرس البحر ( البانجا ) وهي آلة كهلب

المراكب ولكنهم حادة الأطراف وقد تعدوا صناعات عديدة كصناعة  
 الفخار ونسج الدمور وصهر الحديد الختام وصرفه وصنعه حراياً ومزاريق  
 واللات حديدية للزراعة يشجرون بها بين قبائل الزنوج الأخرى وذلك  
 كله بعد أن كان المرء منهم يقيم على وجهه في العادات لا يدري أين يذهب.  
 تصادفه شجرة مشمرة فيأكل من ثمرها وينام تحت ظلها مثل التسلكاوى  
 أو المدسكارى في ذلك مثل أيتى القبائل الزنحية الأخرى — وعلاوة على  
 ذلك فقد نشأوا على عادات مزرية تحط من شأن النوع الإنسانى : أمثال  
 ذلك أنه إذا مات أحدهم خلع كبر أولاده على زوجته قائداً ولدت  
 الزوجة منه ولداً دعاه أخاه لأنه يعد نفسه وكيلاً عن والده المتوفى ولا حق  
 له في نفسه وذريته وهم يتأمنون على الرماة المتجلب من حريق روث البقر  
 ويعسلون وجوههم بالبول ويرجون به اللبث والمصطفى وما يكون أمتة  
 وشربون الدم وأنزجى البدانى أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان وهو  
 من الناحية الاقتصادية عامل إتلاف وإبادة وحسب . فلم يكن ينظر  
 إلى أبعد مما يصل إليه نظره فلا يرى الأشياء إلا كما يراها الطفل ،  
 قاشم مخلوق حى ، وكذا الريح والأمطار وغيرها ، والمرضى  
 بسبب الأرواح الشريرة التى تدخل الجسم — جسم المريض ونظرد  
 الأرواح الطبيعية ، والأحلام هى وقائع حقيقية للنفس فى تحولها  
 عند ما يكون الجسم نائماً ، ويض الرنجم أن خياله فى الماء هو جزء منه ،  
 ولذلك فإن الكثير منهم يحترسون عند ما يسرون هذه الأنهر من وفوع  
 ظلمهم على الماء . خوفاً من أن يصل لبه التماسح ، فيسحبهم إلى النهر عن

طريق تظل و... كما... وينظرون إلى أغلب الشرور كأنها اضرار .  
فالسرقه وغتيل وانهب في نظرهم رفعة وبجس فقد يفلون المارك عند  
ما يتأخر المضر أو يكثر المرحس وتشيوخ عند ما يشع اعداء . وقد  
يهجرون الأولاد أو يبيعونهم عند ما يكثرون ، فهم لا يعرفون الضمير ،  
ولا يعرفون إلا بقانون أخلاقي واحد هو قانون الحق للأقوى ،  
مخالفا على وجوده بحرب دائمة مع القبائل الأخرى ويعيش من اليد لليم ،  
حياته ممؤة بالآخطار والمخارقات ، بصداد الخير ثات والاسمك ويقتل  
ليعيش .

وكان الزواج في عالم الأولى ينحصر لخاصة الرؤساء والسادة  
الدين أني عليهم جهلهم ومخافتهم إلا أن يعيشوا في اضطراب وفوضى دائماً  
لا يعرفون حياة الاستقرار والسكينة بل يشنون على بعضهم بعضاً حروباً  
شعواء تهلك بيها مئات من أبناء قبائلهم ويقدمون أسراهم إلى (الجلالة)  
إلى جانب ما يقدمونه إلى هؤلاء من سلع فيأخذون بدلا منها مما لدى  
(الجلالة) من بضائع زروق لهم وتسد حاجاتهم كالسكر والدمور  
وقش الجاوه الأحمر والبقرة والخرز والودع والخراب وآلات الحفر  
والزراعة وكانت هذه تجارة رائجة تدور على الجلايين حيرة عظماء وأسس  
هؤلاء في الخرطوم شركات تجارية ربحت أموالا طائلة . وانتهى الأمر  
بهؤلاء الجلايين أن اقتسمت شركائهم مناطق لنفوذ الواسعة في أقاليم النيل  
الأعلى وبحر القرال والسوباط حصصاً ، يبنون فيها الإراتب ويجمعون  
فيها سن المبل والعبيد وغمبر ذلك من السلع . ثم تألفت من الزراتب

الكبيرة المشايخ واستأثر الجلايون بكل نفوذ، وأصمدا على البنادق  
ونبارود في تأييد سلاطنتهم على الرنوج . وكان في أثناء مطاردة هؤلاء  
الجلايين أن انكشف نفوذ الحكومة حتى صار لا يتعدى قرية اللبسى على  
النيل الأبيض جنوباً وصارت الحالة تنذر بضياغ كل هذه المناطق من  
حكومة الخرطوم وعلى ذلك فقد بدأت الحكومة تعمل لانتزاع هذه  
الزرائب والمشاريع من الجلايين . وقد صارت الحكومة في تنفيذ هذه  
الحملة سيرا معتدلاً حكماً في أول الأمر بيد أنه ما أن حصر صموئيل  
بيكر وشارل جوردون حكماً على مديرية خط الاستواء حتى تبدل  
الحال . وركب الاثنان متن الكشط فاعتنا في مطاردة الجلايين ومصادرة  
الزرائب والمشاريع وإجلاء أصحابها عنها . فضلاً عن ذلك فقد أبيع  
قتل الجلايين وإهدار دمهم وأسرف بيكر وجوردون في إتباع سياسة اتار  
والسبب لإبادة تجار الرقيق حتى انتثر الذعر وعمت البلوى وذاعت هذه  
الأخبار المروعة بين أهل الجلايين ودويهم وما خبر هذه المعارك ،  
إلى عصابات السطو وقطاع الطرق أمثال أبرميكة وخلافه فانضم  
هؤلاء إلى الجلايين يشدون أزرهم في هذا النضال المرير فبلغ عدد  
المقاتلين حوالي ٥٠ ألف رجل من الشجعان المخاضرين ثم عقدوا اتفاقاً  
مع سلطنة دارفور وكانت وقتذاك ما تزال دولة مستقلة ولم تدخل بعد  
في حيرة الخديوية المصرية يدمعون بمقتضاها مكوساً معلومة لحكومتهم  
دارفور ، لقاء السماح لهم بالمرور في بلادها عند سفرهم إلى أميوط حيث  
يبيعون بضائعهم ثم يبتاعون بأثمانها ما يلزمهم من بنادق وبارود وقد

حاولت الحكومة المصرية منعهم فلم تنجح وخشيت أن يشجع من تشدها في ضرورة إغلاق منافذ تجارتهم في القاهرة وأسيوط أن تتحول هذه التجارة إلى طرابلس ومراكش .

وما يحسد بنا ذكره أن الصماء كان ما بين رؤساء الزنوج والأجلايين موطناً وقبيل كلا الفريقين أخذوا بندية، لا تقاذا الأسرة من الموت ومن المعروف أن الزبير باشا امتدى بخصامة عبيداً امرد من ملك الهيايم كل محكوماً عليهم بالأعدام جندهم الزبير ممن جشسه الذي فتح به دارفور وعند ما أساء الانكليز إلى الزنوج وأوسعهم جوراً وعسفاً اجتمع رؤسائهم وقرروا إرسال وفد مؤلف من خمسة من أبناء موتكم وحسنه آخرين من الكجور ، أي العلماء ، حتى يذهبوا إلى الخرطوم ومنها إلى مصر فيرفعون هناك ظلامتهم إلى الخديوي عن أنه ما وصل هذا الوفد إلى الخرطوم حتى قبض الانكليز عليهم وسجنوهم في سجون الخرطوم فانوا جميعاً من سوء المعاملة ونحاشهم واحد فقط هو ابن ملك غور غورو وقد لجأ إلى أسرة المرحوم يوسف باشا الشلالى فأكرمت الأسرة وفادته لما كان بين والده الملك وبين الباشا المذكور من متن الصداقة وصادق الود والولاء وقد طلع ابن الملك غور غورو مشياً في بيت لشلال إلى وقت سقوط الخرطوم فأكرمه المهدي ورفع منزله وما برح معدها عنده حتى مات المهدي وخلفه عبد الله التعايشي فزاد في إكرامه وأبقاء لديه بثابة ومثل ، من قبل ملك نخط الاستواء بفاحشه في كل ما يلائم مصلحة الفريقين :

ومما هو جدير بالذكر وله دلائل البالغة أنه حدث في سنة ١٩٢٧  
أن طلبت عصبة الأمم من حكومة السودان بيانا وافيا بعدد الرنوح الذين  
حررتهم الحكومة وأولئك الذين كانوا لا يزالون حتى هذا الوقت في  
رفقة لعبودية والاسترقاق مع شرح معالة كلا الفريقين الاجتماعية  
والاقتصادية وشمرت الحكومة عن ساعد الجند لاعداد هذه البيانات  
ولكن سرعان ما تبين أن العبيد الذين لم يحصلوا على أوراق عتقهم وظلوا  
يصيرون في حكم القانون والعرف رقيقا ، وكان يجب كذلك أن تقدم به  
البيانات المطلوبة ، قد اندمجوا في أسرات أسبادهم وأصبحوا من المراتي  
ونعذر على الحكومة أن تصدر لهم أوراق العتق وعلى ذلك فقد عمدت  
الحكومة إلى اعتبار « مرافيت » الجيش المصري من الرنوح رقيقا محررا  
وستان الاحصاء المطلوب بيانا باعدادهم وأما هؤلاء « المرافيت »  
فكانت الحكومة قد أسكنتهم بعد تسريحهم من « الجيش » حلالا ، أي  
فرى معيه تعرف بأهم المادكية كهرب الجيش في كسلا وحلال كابوش  
في سنار وحلال الديووم في الخرطوم والديووم في جود رجب . وقد يكون  
من المبعد أن نذكر بمناسبة إقامة مرافيت الجيش في الحلال التي اختارتها  
الحكومة لإقامتهم أن حكومته السودان الحالية ألغت النظم التي اتبعتم  
حكومة « التركية » السابقة ذلك بأن نعت الحكومة كانت تميد المراهيت  
من انما كره إلى فيانهم الأصلية حتى يشيعوا فيها المعرفة ويستطيع بعض  
الندماهم في هذه لقبا أن يرشدوا أهلهم إلى الهدى والنور وينقل أهل  
هذه العشائر عن الجنود « المرافيت » ما كبه هؤلاء من خيرة تمكثهم



من السر رويداً ورويداً في طريق الحضارة والرقى كما كان يحدث مع أبناء قبيلتي النسيكة واشعك ولكن حكومة السودان الحالية سرعان ما خالمت — متعمدة — هذا النظام فخرمت عودة أى عسكري مرموز إلى قبيلته بدعوى أنه عاشق في حياته العسكرية البرونج ، أى «ناس بحر» من سودانيين ومصريين ففسدت طباعه لدرجة صار يحشى منه على انتشار السوء والفناء بين أهل قبيلته ، وتلك دعوى باطلة لأن غرض الحكومة الحقيقية — كما يعرف السودانىون وغيرهم من شهداء ما زالوا يشهدون هذه الحوادث لم يكن سوى إثارة عواجل المحقق والفضاء بين أهل البلاد والفرقة بين مختلف الشعوب السودانية وآية ذلك أنها ألغت من هؤلاء المرافقت قوات من المثليات تحت رئاسة الأميرالاي المرحوم السيد بك عبد الله في شرق السودان والمرحوم الأميرالاي فرج بك أبو زيد في كوستى وسار — مهمهما إيداع للقبائل العربية كقبائل كمانه واحدة والبقارة كذا الهدندوى والجلانقة وبنى عامر والبعجه عموماً في شرق السودان تحت سار إيداع رقابة فعالة على نشاط العرب محافظة على الأمن والسلام وإعلاء عن ذلك فقد اتخذت الحكومة من هؤلاء المرافقت أداة طيعة تنشر بين الرقيق في حوزة القبائل روح التمرد والعصيان على أن الحكومة لم تنشأ أن تكسفي بذلك أعداد هؤلاء المرافقت في الأحصاء المطلوب وكانت أعدادهم محدودة فلجأت إلى وسيلة أخرى لإظهار مدى تقدمها ونشاطها في هذه الناحية الإنسانية — تحرير الرقيق — وعلى ذلك فقد عمدت إلى استجراح هذا كحرية لكل الرقيق الذى كان ما يزال

إعاش في كنف أسباده من وقت المدة تثار الأهل بسبب ذلك واحتجوا على عمل الحكومة قائلين ، إنه إذا تعدت الحكومة أمر إعطاء نفاذ كحرية طولا ، الرقيب فال درلاب المعدل سوف ينف لا بحالة ويترب على ذلك عدم قدرتنا على دفع الضرائب فتجدد من ثم تلك المأساة التي كان من نتائج ثورة المهدي وعلى ذلك فقد اجتمع المفسدون بمديريهم وجمع امديريون أعضاء مجلس الحاكم العام في الخرطوم وقرر الجميع إيصال تحرير النفاذ ولاية ، اعيد في حوزة أسبادهم بأفورة إذا دعا الأمر ، لهم لم قلبت أن ورعت جهود الهجرة والمشاة الراكبة على الحلال فخر و ، فطافا حوزها واعدوا اعيد إلى أسبادهم تحت اسم ، عالج زراعة ،

## كلمة ختامية

ورى قبل أن محتم هذا الفصل أن تأتي على خلاصة وجيزة لأعمال النجاسة التي كان يقوم بها الانكليز في احتطاف السود من أفريقيا وطمعهم في ايجار ثم بيعهم كالأفعام العمل للمستعمرين منهم في جزر الهند إلى اسفكية للاستعانة بهم عن السكان الأصليين من سكان تلك الجزر والذين أيدوا نتيجة الأرهاق في زراعة قصب السكر واللاتك وجور الهند .

فإن الحقائق المعينة أن الانكليز — والانكليز وحدهم — على حد قول السيد ، رسل ، في كتابه ( اللون والجنس والامبراطورية ) ، كانوا يحتظرون الرقيب الأسود من أفريقيا وينتقمونهم على مرأى انكليزية إلى منقطع العمران في جزر أسفكي ليعمل للمستعمرات الانكليزية ، كما

تباع السلع العادية ، وكانت بحارة مريحة درت الخيرات الوفيرة على تجار  
الرقيق من الانكليز والبرتغاليين واستمرت المراكب الانكليزية في نقل  
الرقيق الاسود من افريقيا إلى جزر الهند الغربية وشمال أمريكا الانكليزية  
بمعدل ١٢ر٠٠٠ عبيد في السنة وقد ازداد هذا القدر حتى بلغ ٢٥ر٠٠٠  
سنويا . وهكذا ظل الحال والانكليز يخطمون الرقيق ويلقونه في كهوف  
مظلمة من قعور المراكب من أواسط القرن السادس عشر حتى القرن الذي  
انتهى فيه سنة ١٧٧٦ حيث قدر عددا احتفظ من العبيد : ٢,٥٠٠,٠٠٠  
هناك خمس هذا العدد أثناء الترحيل وقذف به في البحر طامعا الأسماك  
وأشد الرعب نتيجة سوء المعاملة أو نتيجة نزع آخر من أنواع الإبادة كما  
قيل في البرلمان الانكليزي حينذاك .

وفي سنة ١٨٢٣ أعلن مجلس العموم الكف عن الاسترقاق ، ولكن  
ذوي الشأن من حكام المستعمرات استجعوا بهذا الباطل وتساءلوا عن  
تفديده كأنهم كانوا في حاجة إلى رؤية ثورة يقوم بها العبيد وقطعهم لرؤة  
البركان الذي كانوا يقفون فوق قوته . وفي النهاية تم إلغاء الاسترقاق  
وتقرر صرف تعويض قدره ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه لملك العبيد في المكاب  
ود جزر الهند الغربية ، ومرتوس ، وقدر أن هذا المبلغ يعادل نصف  
ثمن الرقيق المفقود .

وسرعان ما غطى أسياد الرقيق إلى طريقة مده للاستعانة وهي  
الاستعباد المالي فتسارعوا إلى الاستيلاء على الأراضي الزراعية . وحتى

إذا ما امتلكت الأرض كافة . أعطيت قطع صغيرة للعبيد بالاجادات الثمينة وحل امتلاك الأرض وتأجيرها بالطرق الحديثة محل العبودية الحديثة وهكذا . بطل الاكيز طريقة امتلاك ارق الاغتصاب واستمادوا عنها برق إختيارى أقوى من الرق القديم دعامة وأكثر اشتمالا على عدد المستعبدين .

وإذا عثبت ايها العارء الكريم تنمع أطوار السود في جيكا وجزر الباسفيكي وأمريكا لوجدت أقواماً لا فرا من العسف والاضطهاد ما لم يكن له مثيل في آسيا أو أفريقيا . تخكايتم منعه بشق مساحي انه واطف: من يأس إلى يقين ، ومن جهاد إلى إسسلام ، ومن شجاعة إلى استكانة . ومن تشاوم إلى تعاون . ومن يقين وصبر . إلى شك وجرع وامل ، فهم قوم قارموا أشد صنوف اليأس ، وأقصى مصاعب عبودية ، قوم مرت عليهم من المهر حقبات سود فحلة موحشة ، لم يكن لهم من سلوى سوى حفلات المآتم : هم يودعون موباهم ويستهممون مصاتهم ويصمون فيها رجائهم بالحرية التي تنتظرهم في أوطانهم بعد المات !!! فاذا ناح الزمجي شرح بك كيف عانى في كذب أفوام يهين البشرة شقر الوجوه . هو عنهم الغريب المنبوذ . عرائد ومشارب تختلف في كل ناحية عن عاداته . ثم يصيب مآسيه وآماله . وصبره وإيمانه ، وثقتة وبقته ، وحرية مستقبله في دار الخلد !!! هناك يجتمع بأمه وكرحه وتورده وأبقاره — وهناك يمسك ذنب ثور المختار الذي ولد معه في يوم واحد ويعطقه في الذابة

ويبقى وراءه ثم يقبله من غربه ويقول له : أنت أحيى وفريقى ومحبى  
مزاجى وكفى ، ...

وتتجلى خصائص الرنجى فى تعبيراته . عند ما يجلس الفرفصاء بين  
اليا كين أثناء وقصات اموت ويضوح قائلا : لقد انهكتى العذاب والمذيب  
بأسمى ! انهكتى حتى اموت . ولكن الموت ما كان تضعف منى ساعة . منه  
فى هذه الساعة . فانا . ما أنا ذا اليوم بين ذراعيك . وما أنت ذا بين  
ذراعى . أعماقتنا عتق الراح بالماء . وانور للعين . والحلم ببناء . فما  
أحب هذا اليوم إلى قاي وأشبه . لا يهولك ما أى عيب فى مفصلى .  
وضباب فى عبنى ، وذبول على وحبى . فما أذكر وهى لره ذبذكر  
كم ذلك قطعت . ركم من ستنى طويت قبل أن أدرك هذا اليوم . يوم  
لقائنا ... وإن وإن غاب عنى الكثير مما كان منى وهنت . ما نسب يوم  
أدركنى فيه الرجل وهو يطاردنى وكان يمتطيا جوادا له أربعة أرجل يسبق  
به الريح . بينما كنت فى بطن الوادى . والجوع قد هدد حبنى وكاد يذهب  
أمعانى . فلما أعيانى الطراد . تلكأت . فما كان من الرجل الأبيض إلا أن  
سد بشفته رلى ساقى وصاح : حدها يا أبغص الناس وهو الكذبة .  
فسقطت ولما إقترب منى طعته بحربى فى ساقه أيضاً . وسال منه الدم ،  
كما سال منى الدم ، والى آه يا أمامة بدقية الرجل الأبيض فتاكه تقرب  
له بالبعد . ونطبع له العاصى . وما مثل حرقى بألمه لدقته إلا كمن  
البيضة والحجر . . . كان مع الرجل الأبيض رجل أبيض آخر . تدوبا  
على ، كنانى ثم أحصرت ولا أدري كيف أحصرت . وعشت ولا أدري

كيف عشت فوق أرض ليست بأرصى ، ونحت سماء ليست بسأى .  
ومهما أصابني من الشقاء فلا زالت تلك ساعة — ساعة إخطائي . حية  
في فكري ، أما في قلبي فأكبر قتال ، وعداوة لا تنام .. فهو  
سبب شغافى وبعدي وبلائي ، وعذابي وعذبي .

كلما مرصت كلما بدت مهابت الأمل في نفسي ، وأخذ خيال السعادة  
يحضني ، فأرى بين البصرة وجهك الصوح . وعينيك أصابيتين ،  
وأراني أقصم من خيرات بلادى كالجراد . ولم يكن شيء في الوجود يعادل  
مصر في حينها أحضر مراكب الموت ، فأروح وأرنح في لبكاء والنحيب .  
ماذا يضير الأسود لو اشعر ومات ، إن طريق البهائم كئيف ، يموء  
بالعشم الرميم والجناح الممشمة ، وعلى قارعة الطريق أشلاء هي فريسة  
لكره واحد — كره الأبيض للأسود . والأسود الأبيض ، لن تغفر  
لأولئك الذين أساءوا البنا وأذاقوا ناعم العذاب . . . . . ودعوا بنا بعيداً —  
بعيداً عن الأوطان وبذوقنا هذا الذباب ثم يلتفت للمعزيين ويقول :  
إخوان الشقاء : دعوا خيالكم يمرح حيث شاء ، ويدور معتلي الآفاق  
مع المواصف . ويتدفق مع المياه الجارية ، ويصفر مع الريح العاتية ،  
دعوه يتحد مع الأعصاب المتهاينة ، ويهتجم الغابات الكثيفة . أتركوه  
يتلألأ مع فوس فزج ، ويتلاشى مع العيوم لساريه . لنعني نفوسكم  
وتدقق الأدينة خلال أرواحكم ، لكي يعمركم رضى الله : .

## الفضل النخاس

### سيرة الزبير باشا رحمه

« باشا الزبير باشا ، تارست سحره ، مشاركته لأبي  
عمودي أمري ، فتح بحر الزبير ودوره ، استقامه  
الطوبى له ، دوتت سودان - شعاع المشقة »

الزبير باشا رحمه من قبيلة الخيماب ، نسبة إلى جميع العباسي ،  
وهي قبيلة مشهورة بالشجاعة والكرم والإقدام شأنها شأن عرب السودان  
الذين يزوا في هذه الصفات في سائر الاقوام وللزبير مكانة كبيرة في تاريخ  
السودان الحديث بدأ حياته بالبحارة ثم سافر في سنة ١٨٥٦ مع ابن عمه  
إلى بحر الغزال في خدمة علي أبو عمودي وكان من تجار أصحاب المزارع  
وأصله من جمع حمادي وكان كثير من التجار السودانيين والمصريين  
يتملكون الرائب في هذه الأصقاع ، واشتهر الزبير بالشجاعة والإقدام  
بفضل دفاعه عن زريبة علي أبو عمودي فيها ، إلاهالي وتمتع بسمعة عظيمة  
والبك حتى أشأ لعمه تحارة ناجحة دوت عنه أرباحاً طائلة فزاد طعمه  
وتوغل في البلاد حتى وصل إلى بلاد لم يصام غيره من التجار ثم قصد  
إلى بلاد النمام حيث تزوج من ابنة سلطان النمام وأسمه ، تكه ، فارفع

شبه وازدهرت تجارته واباع من ملك النجاشية من الشبان الاشداء  
 درهم على حمل السلاح وكان هؤلاء الشبان من الدين حكم عليهم بالموت  
 ومن المتوقع ان يدبحهم القوم وياكلون لحومهم جرياً على عاد اهل البلاد  
 غير ان ملك النجاشية سرعان ما صار يحشى من شدة بأس الزبير واردياد  
 سطوته فاضطر الزبير الى الخروج الى ملك آخر يسعى دونه ، كان  
 عدواً لملكه ، فامرسل حرمه رجلاً ، فغلبه في الصريق فغلب  
 عليهم الزبير وأعاد ملكه ، فسكره فظهر جيشاً كبيراً لقتاله دونه ،  
 فقتل دونه وقومه وأرغم الزبير على الالتجاء الى بلاد قومه ، وملكها  
 يومئذ عدوه شكوا ، وكان هذا الملك الاخير قد قتل أحماً للزبير قبل ذلك  
 فقامت الحرب بينهما وكانت العلبة في الماية للزبير فقتل أولاً عدوه شكوا  
 وبعث معارك أخرى مع ابن عدوه شكوا ، الذي خدم أياه واحتل  
 دبابته ، عاصمه اتقوا واتحدوا عاصمه للملكة وسماها ديم الزبير ، ثم  
 عمد عرب الزيفات على فتح طريق التجارة بين بحر الغزال وكردفان .

وفي سنة ١٨٦٩ وصل إلى بحر الغزال الخاضع محمد البهالي المعروف  
 ومعه مائتين من الجنود السودانيين بقيادة محمد افندي منيب واربعمائة  
 من الباشيزي وستمائة من الخطرة فقاتلهم الزبير وانهزم عليهم وكان  
 حاكم دار السودان وقت ذاك جعفر باشا مظهر .

ولما رأى ملك النجاشية اتساع ملك الزبير أرسل يده ويطلب منه  
 ترك ملكه والسيطان وبعود إلى الاشتغال بالتجارة بحجة انه جلاني وأني



الزير وعلى ذلك فقد اشتملت الحرب بينهما وانتهى الأمر بانتصار الزير فضم إلى ملكه بلاد النمام وكان الرزيقات في هذه الأثناء قد تقصروا العهد وقطعوا طريق وشكا، وهو طريق التجارة بين ممتلكات الزير في بحر الغزال وبين كردفان والسودان الأوسط فطالب الزير في عام ١٨٧٣ من إبراهيم سلطان دارفور وكان الرزيقات يدبثون له بالصاعدة أن يعاونه على إخضاعهم فبعث إليه برسالة اختتمها بقوة « ونحن نتقدم إليكم بهذا الكتاب واثقين أنكم متى نظمت حال هؤلاء العربان الطغاة الذين خرجوا عن طاعة سلطتكم منذ ثلاثين سنة وبف تنجدونا بسرية من جيشكم حتى إذا ما تم لنا إذلناهم نعود قدسوى الأمر بيننا وإما أن تتركهم لنا لنحكمهم بالقسط والعدل وإما أن تتركهم لكم فتشجون الطريق وتهدمون لنا المعقات التي نبذلها على عساكرنا في أخلة عليهم » ولما لم يحب السلطان إبراهيم على هذا الكتاب واستمر الرزيقات على فعلهم فقد حاربهم الزير وهرمهم شر هزيمة ، وأسر قبيهم عبد الله التعايشي وهم على قتله ولم ينج عبد الله من القتل إلا بفضل وساطة المشيخ الذين منعوا الزير من قتله وعبد الله هذا هو الذي صار فيما بعد خديعة للمهدى وحكم السودان ستة عشر سنة وهو رجل شجاع وجريء وطموح ومغامر ومكافح ومشهور بالدهاء ولولاه لما حدث للمهدى من ظهور ولما كانت المهديّة .

ونرتب على انتصار الزير وهزيمة الرزيقات ثم دخوله وشكا ، أن

توزعت تعلقات بيته وبين سلطان ابراهيم لأن دارفور كانت تعد هذه الجهات من أملاكها وعول ابراهيم على الانتقام من هذه الذريعة وصرده الزير من شكا . فبادر الزير بتقديم كل البلاد التي فتحها في بحر الغزال وشكا إلى الحكومة الخديوية المصرية ، وطالب من الحكمدار اسماعيل أيوب باشا أن يرسل من قلعه حاكما عليها باسم خديوى مصر . فأفعم عليه الخديوى رتبة البكوية وعينه حاكما على بحر الغزال وتم الاتفاق بعد ذلك على فتح دارفور دأبها على أن يسير اسماعيل أيوب بجيشه على هذه السلطنة جهة الشرق بينما يزحف الزير عليها بجيشه من جهة الجنوب . وسقطت دارفور في قبضة الحكومة المصرية وأفعم على الزير رتبة الباشوية بيد أن تدخل زير في شتوتون اقتنوح الجديدة لم يثبت أن غير شبيه اسماعيل أيوب باشا ثم نظارت الاشاعات بأن "زير كان يهدف إلى الاستقلال بالبلاد التي عين حاكما عليها فوجد أن من الخير له أن يحضر إلى مصر لمقابلة الخديوى شخصيا حتى يعرض على سموه حقيقة الحال ، - على حد قول الزير والنظر معه ومع رجال حكومته في تنظيم البلاد التي تم فتحها على يده وابلاد التي يمكن إلحاقها بحكومة الخديوى في استئصال لجاء فأمراف من مصر بالموافقة على سفره .

ومع ذلك فقد نصحه رجاله بعدم السفر إلى مصر قائمين ، وإذا أتت سافرت إلى مصر حيزوك هناك ومنموك من الجوى ، فلم يسمع لنصيحهم وقام من الفاشر بين مطاهر الإجلال والاكروام فنصنته أقواس النصر في كل بلد نزل فيها من الفاشر إلى الخرطوم ومن الخرطوم إلى القاهرة

واستقبل بالخمارة والتمهيد في كل مكان وأُضيف له المدافع في الخرطوم  
وفي القاهرة لوصفه من تغزاه المائتين ، وقد حدث ما كان يوقعه أعداه  
ورجاله فاحتجروه الحديوي في مصر تحت ضغط الإنكليز

وفي سنة ١٨٧٧ رافق الجيش المصري أرسله الحديوي ، ساعداً  
لتجدة الدولة العثمانية في حرمها صدروسيا وأظهر في الميدان من صروب  
ذلك جماعة ما كان موضع التقدير والإعجاب وقد ظل " بير علي " ولاته  
للحكومة على الرغم من قتل ابنه سليمان عمداً في سنة ١٨٧٩ على يد  
" جسي " الإيطالي عن نحو ما تقدم بيانه .

وفي سنة ١٨٨٣ انتسب لقتال عثمان دفة في طوكر فصر فيير عن  
عن ساعد الجدو جمع آلاياً من أمساكر في مصر ولكنه عدل عن الذهاب  
في آخر الأمر لأنه أبى أن يكون تحت إمرة " ماكر " الإنكليزي .  
وفي سنة ١٨٨٤ استنجد به عردون لاستلام السودان على الرغم من أن  
الإنكليز كانوا قد أهانوه يومئذ ونحاسوا وشنعوا به وفضلاً عن ذلك  
فقد عارض الرأي العام الإنكليزي ممارسة شديدة في ذهابه إلى السودان  
بسبب تلك الحملة الشعواء التي أثارها ضده جمعية إبطال الرق في لندن .  
وفي سنة ١٨٨٥ نفي الزبير إلى جبل طارق شهيداً أنه كان يتفاوض سرا  
مع المهدي فظل هناك ثلاثين شهراً ثم أفرج عنه وعينت له الحكومة  
المصرية رانياً شهرياً قدره ٢٨٩ حنبراً يتناولها حتى وفاته وينقل لذريته  
من بعده .

وبعد استرجاع السودان أذن الامكاير لاربير باشا «العودة إليه  
 فيادر احمد افندي حمدي سيف النصر ، الفرق احمد حمدي سيف النصر  
 باشا ، باستضافته في منزله الخاص وهو قصر عظيم بجدة أو روف على  
 البحر الأعظم في أم درمان قصر الزبير باشا سروراً عظيماً بهذا الاكرام  
 وكان حمدي افندي وقتذاك مأموراً لمدينة أم درمان وله متعود والسيطان  
 وكان أهل السودان في ذلك الحين أشبه ما يكونون ، التريض الذي يجلس  
 الخطر وبدأ يسترد عافيته رويداً رويداً وذلك بعد ما نزل منه من عجز  
 وشروع عي يد حكومة الدار بش قدم حمدي افندي للملك والمستجبل  
 من الخدمات لحمل صكاته لوزير باشا في أعين قومه بما حبه إلى قلوب  
 السودانيين وحمل السنتهم تاج بالشكر والثناء عليه حتى أن الوزير باشا  
 نفسه حاطبه ذات مرة ، برجل ، سوداني مازال يقوم هناك بردهونه  
 إلى يومنا هذا في عتي المناصب :

وأت يا حمدي رفيق وتنام كبي ،  
 وودوجة عصاي وبلاي وسيني ،  
 ومظورة غلاي مونة خرمي وصيني ،  
 وستار عوني عندناي وجاري وصيني .

ووزير باشا رجب رفيق الأفراد ، كثير الودد ، يحب التلجيز ، أخ  
 للفري وأخ للصديق ، صاحب للوضع وصاحب للشريف فهو للسيف  
 ولاضيف ، عصار كرجاج ، على حد قون أدل سوداني ، أي رجل  
 حرب وكرم وحرف وشده وكان الوزير ، شائميل إلى المرح والعكاه  
 وإلى جانب ما عرف عنه من شدة والبصراة وقوة اليأس

سأته حمدي الهندي سيف النصر ذات مرة عما كان يتنابه من هموم وهو  
أسير في جبل طارق فأجابه : كنت ، أدري ، أن أغنى بختك السودان  
وأحاطب أعضاء جسي لأن احراس لا يفهمون لغتي وأنا أجهل لغتهم  
أيضا فكنت أقول :

« كم يا الساق أخلفك فوق بشارية ،

« وكم باليد جلدنا بك جنى الوحشية ،

« وكم يا القم أحلم منك مراره وشبهه ،

« متين نموت أصل العمر عاريه .

وقيل أن الزبير باشا دخل مرة على مدير الخرطوم ، استأثن باشا ،  
فلم يحفل بقدره كما يجب لما كان من الزبير إلا أنه نهره قائلا إني لست  
بالرجل الذي لا قيمة له ففتح بلادا مساحتها أضعاف أضعاف  
جزيرتكم فكيف لا تحفل بي وتقدم لي ما يجب من الاحترام . وأدرك  
استأثن خطأه وقدم اعتذاره وقد عرف الزبير بالشجاعة والمروءة إلى  
جانب ما عرف عنه من الشدة والصرامة وقوة اليأس والجرأة والاقدام .  
فالشجاعة هي التي دفعت به إلى محافل ما وراء المستنعمات وجعلته يكتشف  
مديونية بحر انغزال ويمتلكها ، والشجاعة هي التي دفعته لركوب الأخطار في  
بحارة الرهائنات أشد التباثل بأسا في الغرب ثم افتتاح سلطنة دارفور .  
وكان الزبير باشا سيف ثمين يعتز به ويسطحه في غدواته وروحائه فما  
مات وقع هذا السيف في يد المرحوم الشريف يوسف الهندي ، فاعتز به

وحفظه عنده كتدكار ثم لا يهدر دمه لما كان لصاحبه الزبير من المبررة  
الممتازة والفرد العظيم وكان الشريف يوسف الهندى أكبر الزعماء مقاماً  
عندما أعيد فتح السودان وقد ظل يقيم فى سنار حتى سنة ١٩٠٨ ولكن  
الانكسار بدأوا يشكون فى احلاصه بعد واحة الكنفية بسبب ابوانه لهلول  
انصاره واد حربه عندما كان فى سنار ودعوه للاقامة فى الخرطوم ولولا  
مكانته لروحة التى تبلغ حد التقديس فى نفوس انصاره ومريديه من  
قبائل العرب لثلث به الحكومة كما صيقت الخثافى على غيره من الزعماء  
والفقهاء الدينيين امثال الشيخ محمد التوم طلحه وغيره من الدين لجأوا إلى  
مكة وماقوا بها .

وكان من اظهر صفات الزبير باشارحه الكرم والنجدة وحب الجاه  
واسلطة فوصفه كتاب الانرجح بأنه رجل نجارة وسباسة وحرب . وقل  
بعضهم بأنه خلق لحكم الناس وقد اشتمر بالكرم منذ كان مديناً فى بحر  
العرال حيث يقصده الكثيرون من اهل البيوتات السودانية الذين اخنى  
عليهم الدهر فعمل على تيسير الحال لهم وازالة الضيق والكرب عنهم وقد  
ترددت فى بعض المجالس المبالغ التى اجد فيها قومه فباع بحرهم بحوم ما تلى  
الف جنيه وبقيت داره مفتوحة بقصدها كل من حانه الدهر او عسى  
الخط فى وجهه حتى انتقل الى رحمة الله سنة ١٩١٤ ودفن فى الجبل . ومن  
المزلم حتماً بل من الحصناً الفاحش هو أن لا ننظر الى الزبير باشا نظرة كبار  
وتمجيد مع أن تاربع حياته مقسم بالبطولة وباحبدا لو عنت الشبيبة  
المصرية والسودانية بشأن هذا الرجل العظيم واظهار مدونه بما يليق به  
من الكرامة والتقدير .

## الفصل السادس

### سيرة الامام محمد احمد المهدي

شأن المهدي : مية لطيفة السيرة وشهده انما بالبيع  
المرئي . انما هداية الناس . في المولد . انما  
شأن الرقيب وتأييد هؤلاء لدعوتهم . دعوه المسبية

ولد محمد احمد المهدي في جزيرة ضرار من أعمال دنجله ، ونقله ،  
حوالي عام سنة ١٨٤٣ واسم أبيه عبد الله ، وأمه زينب ، وهو من ذرية  
رجل صالح يسمى ، الحاج الشريف اشهر بالنفوس وينصل نسب إلى  
جد له اسمه ونجم الدين ، وهو جد الكنوز وينسب إلى أهل البيت .  
وصيبي نجم الدين هذا مدهون في القاهرة في حي يسمى باسمه يقع بين  
سبل أم عباس بالعباسية وياض اشعر ، وله قبة فوق ضريحه ومسجد  
وأماكن موقوفة عليه بدخل في نطاقها مدرسة الطائفة الاسرائيلية ومصنع  
الطرايش ومصلة النقل الميكانيكي وجراج الحكومة ، وقاير بته الألوان  
المصرية لليدب نسيم الكياني المعروف ومطبعة الخبا ومصانع أخرى  
وعدة منازل للسكنى وأرض صاء وكل ذلك أوقاف يرعاها الآن عبد الوه  
افتدى عرفت الحسيني يوجب وراثته بهذه الاوقاف وتعيينه  
ناظرا عليها .

ومحمد احمد المهدي قبل ادعائه لمهديه كان طالب علم فخر طي عماده  
تلاميذ الشيخ محمد شريف ولكنه غاب في استاده وتناول عليه ومحمد  
الاستاذ ذلك ذريعة لمحو اسمه من بين اتباع الطريقة السمانية وقال له الاستاذ  
محمد شريف اذهب فقد صدق فيك المثل الثقال ، الدنقلاوى شيطان بمحمد  
بمحمد انسان .

وكان الامام محمد احمد يحب الطريقة السمانية المذكورة وأصولها وكان  
له خلفاء وتلاميذ يتقنون أوادها ويفرزون روايتها فلم يكن ترك هذه  
الطريقة واتباع غيرها أمرا يسهل عليه قبوله فذلل لأستاده محمد شريف  
وحلب منه العفو مرارا فلم يجبه إلى طلبه .

وكان في الحويين ، بين المدية والكاملين — على النيل الأرق  
وشيوخ من مشايخ هذه الطريقة يدعى ، لشيخ القرشي ، الذي أخذ الطريقة  
السمانية وأما من مؤسسيها ، الشيخ الطيب ، وكان بينه وبين الشيخ محمد  
شريف منافرة شديدة ، فلما رأى محمد احمد من أستاده هذا الامام التجا  
لنى ، شيخ القرشي ، وجدد عبه لأحمد لهذه الطريقة .

أدع الامام محمد احمد أنه انفصل عن شيخه ، محمد شريف ، لما رآه  
من عذبة الشريعة والسنة وكان محمد احمد قد احتقر لسكاه غاراً في  
حديقة أما أقام فيه وقضى وقته في الصلاة والصيام وقراءة القرآن والمجدد  
والتأخاف وتبكا في الأسحار والنصرع إلى سر الأسرار والنوسل إلى الله  
أن يهدي القلوب إلى ما كنت في الموعود ويصل إلى رزية الحبيب المحبوب  
ومصانة أنوار المقصود .



فاشتهر بالزهد والتفشف وبعيرة الدينية وانتشر صيته في السودان  
فأخذ الناس يفدون إليه من الجهات الأربع وكان المافرون في النيل  
الابيض يقيمون بنفراكب والوابورات — خصوصا الجلابة أي  
( فاس بحاره ) فيقدمون إليه الهدايا ويطلبون منه البركة فيباركهم ويوزع  
الهدايا والعطايا على الفقراء زهدا منه وتقشا .

وفي سنة ١٨٨١ توفي الشيخ القرشي ، فخرج هو وأتباعه ولامذته  
إلى الحبشيين وبني فوق قبر الشيخ قبة — فانضم إليه أتباع القرشي  
والتحدوه بهاء وفاة شيخهم شيخا عليهم فقررت شوكتهم وكثرت أنصاره وقد  
بالغوا في محبة وتعظيمه حتى قالوا في كتب طريقته أن المهدي المنتظر  
سيكون منهم وأن الشيخ القرشي قبل وفاته أرمأها إلى محمد احمد .

وكان من عادة الاسم محمد احمد أن يخرج من جريدته ( أبا ) سائحا  
في بعض أصحابه لارشاد الناس حتى يقطعوا عن المعاصي ، وإذارهم بما  
سيدهونه من عذاب إدام استمروا على مخالفة تعاليم الاسلام ، واستطاع  
محمد احمد أن يجرل في أنحاء البلاد من دنقلة شمالا إلى سار جنوبا ومن  
نيل الأزرق شرقا إلى كردفان غربا وكان أهم ما استرعى نظره ماشده  
بعينه من موجدة الناس على الحكومة وحزينة إلى الماضي ، ما ضمه  
القريب — قبل أن يفد عليهم صموئيل بيكر وأتباعه وغردون ومساعدوه  
وقبل أن يتحكم فيهم أعداء الدين — كما يقولون — وهبل أريصادروهم  
في أحص خصائصهم الديوية والدينية وكان محمد احمد يواسي أهل اتقنى  
من الجلاليين ويترحم على الموتى من ذوي قرانهم ويحضر مشاجرتهم  
ويقدمهم ، الفرج القريب والخلاص من الكرب العظيم والعذاب المقيم —

وإذا كان الناس يدورهم يمنون أنفسهم بظهور المهدي الموعود وكانوا كما رأوا رجلاً بفضائلهم عقلاً ودراية غيرة على الدين وأهله ظنوه المهدي ، فإليه سرعان ما صاروا يلجئون بأن الفقيه محمد أحمد هو نفسه المهدي المنتظر . وأما محمد أحمد فقد رأى فيما كان عليه الأهلون من امتداد دلقون دعوى المهديّة وملك الحل أني وصل إليها الإسلام من الضعف والوهن حتى صاروا يكفّرون بتمديد المسلمين ويصادرون أمورهم ورزاقهم تحت ستار أبطال الرق ومكائفة النخاسة . فنقول أنه رأى في ذلك كنه مشجعاً له على الجهر بدعوته ، علاوة على ذلك فقد كانت نفسه مضطربة على تشيع المذهب الشيعة الذي يعتقد فيه الإمام الحسن العسكري قادحاً بحكم ضرورة والطبع منشد دعوته وبهي . الأذهال لقبول المهديّة ونأيها عند ظهورها وكان في هذه الأثناء أن وفد عليه رجل من العرب هو عبد الله النعاشي كانت له اليد الطولى في ظهور المهديّة وانتشارها ذلك بأن النعاشي كان أول من ناصر محمد أحمد وأيد دعواه وأزره وقواه برجاله الأشداء وبدهائه وسوءه حينه ولولا عبد الله النعاشي لما قامت للمهديّة قائمة ولما استمرت بعد وفاة المهدي نفسه مئة عشر سنة قيل أن عبد الله النعاشي عندما رأى محمد أحمد لأول مرة وقع محشياً عليه ولم يفق من غيبته إلا بعد ساعة أو أكثر ، ولما أفاق ناد فنظر إلى الإمام محمد أحمد وتقدم لمصافحته فأغشى عليه مرة ثانية ثم أفاق وتقدم إلى محمد أحمد حبواً على الأرض ، وأخذ يده وشرع يقبّلها وهو يرعد ويكيء . فقد له محمد أحمد : « من أنت يا رجل وما شأنك ؟ » قال يا مبيدي

أنا عبد الله بن محمد نورشيد من قبيلة النعاشية البعاوة ( رعاة البقر ) وقد سمعت بصلاحك في بلاد الغرب بحثت لأخذ الطريقة عنك وكان لي أب صالح — من أهل الكشف وقد قال لي قبل وفاته إنك ستقابل المهدي المنتظر وتكون وزيه وممكن مره وقد أخبرني بعلامات المهدي وصعانه . هذا وقع نظري عليك رأيت فيك لعلامات التي أخبرني بها والذي بعينها فابتهج أبي لرؤيته مهدي الله وخليفة رسوله ومن شدة الفرح الذي شملني وأصابني الذي رأيته .

فاستبشر محمد أحمد بهذا القول لأنه أصاب هوى في نفسه وبتفق مع ما كان يضره . فبايع عبد الله النعاشي وقربه إليه وجد في بناء قلبه اشيع القرشي فأتوا وعاد بنلاميذه ومهم عبد الله النعاشي إلى جزيرة ، أبا ،

وما أن عاد إلى ، أبا ، حتى شرع في دعوة الناس مرايا رسائل الكتب إليهم وذلك في ٢٩ برية سنة ١٨٨٦ وكان أول من خاطب في ذلك الإحصاء من لغواء والأعيان ومشايخ الطرق والأعيان فأنصح عن دعواه وخرج بها وصار يحثهم على القيام معه لصره الدين والحجرة من أما كنهم للانضمام إليه وعما يمتنه على الجهاد في سبيل الله قائلا : —

• إنه قد رأى النبي ( صلعم ) بعين رأسه بقطعة أجنسه عن كرسيه .  
• وفلده سيفه وغسل قلبه بيده وعلاه إيماء وحكمه ومعارف منيرة وأجبره .  
• بأنه الخليفة الأكبر والمهدي المنتظر وأن من شك في مهديته فقد كفر .  
• ومن حاربته حنن في الدارين .

## وقال في بعض كتبه

« بئى لا أعز هذا الأمر حتى هجم على من الله ورسوله من غير »  
 « استمناق فأمره مظاع وهو يفعل ميثاء ويحمار وقد أمرنى سيد »  
 « نوحود ( صلعم ) تكافئة جميع المسلمين ودعوتهم إلى الهجرة »  
 « معنا إلى محل يكون فيه قوام نديس وإصلاح أمر الدارين ، فلا أدان »  
 « تخشروا معى في ردمها وزلا تتخذوا فيحل بكم الخمران »  
 « وجده في بعض كتبه :-

« عند حتمى عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسية مرارا »  
 « يحضره الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام وأيدى الله »  
 « تعالى بألائكة المقربين والأولياء الأحياء والميتين من عهد آدم إلى زماننا »  
 « هذا ركبة لك المؤمنين من الجن ، وفي ساعة الحرب يحضر معهم أمام »  
 « جيش سيد الوجود ( صلعم ) بذاته الكريم وكذلك الخلفاء الأربعة »  
 « والأقطاب والخضر عليه السلام وأعطاني سيف النصر من حضرته »  
 « ( صلعم ) وأعلنت أن لا ينصر علىّ معه أحد ولو كان "ثقيبين" الناس »  
 « والجن . ثم أخبرني سيد الوجود ( صلعم ) بأن الله جعل لك عى »  
 « مهدبة علامة وهى الخال على خدى الأيمن وكذلك جعل فى علامة »  
 « أخرى تخرج رابه من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل »  
 « عيه لسلام فثبتت الله بها أصحابي . وينزل الرعب فى قلوب أعدائي فلا »  
 « يلقاني أحد بعداوة إلا حمله الله . الخ الخ الخ »

ولما رأى محمد أحمد أن الناس على استعداد لقبول دعوته أعلن أنه  
المهدي المنتظر وأعلن الجهاد وصعد في دعوته وصار لا يثنيه عن عمله  
وعبد ولا يحجبه نهديد .

وبعد أهل السودان وفهموا أنهم أن محمد أحمد كان يقدم على إعلان  
أنه المهدي المنتظر لولا وثوقه من مؤيدة الجلايين له وانضمامهم إليه لأن  
الجلايين كما هو معلوم كانوا أشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار ومنهم  
مغامرون وأهل كفاح وكان شعارهم عند الخروج إلى لغزوة لصيد الرقيق  
وجمع سن الفيلة وریش النعام والصمغ وما إلى ذلك ، باموت أحمر بأذهب  
أحمر ، ويخرج الواحد منهم وفي حاشيته من الاتباع والعلماء ثياب الأثوب  
من الرجال الشحمان الذين لا يشتهون الموت على الفراش كالفريسيين ،  
( أي النساء ) وكان هؤلاء يقومون لقبام رئيسهم المعروف بالمتجمل ،  
ويقعدون لعوده :

وكان من عادة الجلايين أن يبروا بحريه : أباء ، وهم في طريقه . وفي  
بلاد الزواج مقر الفقيه محمد أحمد وكان هذه الجزيرة ( منجره ) لصنع  
المراكب وتعميرها فيضطروه إلى الإقامة بالجزيرة أياما عدة يتجهرون  
خلعاً فينتهزون هذه الفرصة ويقدمون للفقيه ( الأكراميات ) ويطلبون  
منه الدعوات فيباركهم ويثدرون له الذور فيقبلها ويوزعها على الفقهاء  
من الخيران أي طلبة العلم وكان محمد أحمد عند حروجه من الجزيرة ينظم  
دوديعهم في حفل ديني كبير فيؤمهم في صلاة تقليديه ثم ينهل إلى الله

و رازق لمر في السماء والحيوت في بطن الماء أن ينظر إليهم بعين عنايته ،  
و يعقبهم من صوب نعمته و يطعمهم جناح رعايته وأن يكون لهم في بلاد ،  
و أثرية و ديار الوثنيين حرزا منيما و ركنا دينا و دثارا و طبنا و آن يرمى ،  
و الوثنيين بالوثنيين و يخبرهم سالمين حتى يعودوا إلى ذويهم عائمين .

و كان محمد أحمد على اتصال بمجربات الحوادث في مصر و ما سبق ،  
و منها على وجه وجه الخصوص قيام ثورة أحمد عرابي و شجعت هذه ،  
و الأحداث على المضي في دعواته ثم لم تلبث بد لتغير انسا حرة أن غيرت حياته ،  
و عظم شأنه و استفحل خطره و قد لازمه التوفيق في جمع خطراته فإنه ،  
و ما شهد موقعة إلا انتصر فيها و لا حاصر مدينة إلا فتحها فجاء هذا التوفيق ،  
و دبرا ساطعا على تعدد كراماته و آمن الناس برسائه و صاروا يتفقون ،  
و تعالجه كما يلقى الناس الوحي في عصر الأنبياء .

تأكد لدى المهدي بأنه أصبح المالك المتصرف في شئون السودان .  
فأعلن بأنه سيفتح الأمصار و ينزع الملوك و السلاطين وأنه لن يقصى حتى  
يفتح الحرم و بيت المقدس و ينزل إلى الكوفة ثم يموت هناك بيد أن  
المرض لم يلبث أن دمه فأصابته حمى ( التيفوس ) و كانت إصابته شديدة  
لم ينح منها فتوفي في يوم ٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ و دفن حيث مات و بنى  
له الدراويش قبة أطلقوا عليها اسم دقة المهدي ، و أمروا الناس بزيارتها  
و بما هو جديرا بالملاحظة و الذكريات أن هذه القبة كانت المؤسسة الوحيدة  
التي أنشأها الدراويش خلال السنوات الطويلة التي تمتعت فيها ( المهدي )  
بالسلطان المطلق في السودان . و عند استرداد السودان أطلق كنيته

قنابل مدافعه على هذه القبة فهدمها ، ثم أباد وقعة هذا المسلم الذي جاهد في  
الله حتى الجهاد . وقد طلت القبة مهدمة مهجورة حتى سنة ١٩٤٧ . ثم  
أوحى الحكومة إلى السيد عبد الرحمن باشا المهدي ، بحمله بتعميرها  
و للاحتفال بتجديدها لكي تكون مزارا يحج إليه المريدون والانباء .  
وبما يستحق للملاحظة بل ويحز في القلب ويؤلم نفس كل مسلم لغير  
ما تدينه الجرائد الإنكليزية — من وقت لآخر من أحاديث مؤيدة  
بالصور الفوتوغرافية ومقسورة إلى السيد عبد الرحمن المهدي باشا جل  
الإمام محمد أحمد المهدي صاحب السيرة أقرها ما جاء بمجلة News Weekly  
المؤرخة في ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ تحت عنوان The Back Knight  
أي الفارس من الأسود . فظهر أياه في ثوب من الاستنكار للسنيين التي جرى  
عليها والده في محاربة الإيجير أعداء الدين ومصادقته لحولاء الأعداء .  
جالسا على مقعد الخم وبجانبه صورة فوتوغرافية لمربعة دكرري ، أي  
موقعة أم درمان وهي مساة تسحق البكاء والتعجب .

وإذا أضفنا ما يقوم به محل المهدي الكبير ، السيد عبد الرحمن  
المهدي باشا من مسعى غير مشكور في سبيل ربط السودان بمحطة  
الإمبراطورية الاسكارية فغمرنا لاسي والشجر وفنا مع القائلين  
« أنار تخلف رماد » فضلا عن أنه أنزل في هذا السيل فقد تهاود  
في سيف أنه السى قال عنه والده ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سله  
هذا السيف يدا بيد ليحارب به أعداء المسلمين . غير أن السيد تهاود  
وان إلا أن يسم أعز تراث إلى ملك الإنجليز سنة ١٩١٩ ( وهو سيف )  
ولكن جلالة — تفضلا منه — رفض قبول سيف وردد إليه ولا  
نعلم أين هذا الأثر الميعون الآن . . . !!

## الفصل السابع

### الثورة المهدية

فقد لكتبة - من هو السودان - المهدي ، الخميني ، المهدي ،  
تصبح قديما ، ثورة نصريين قديما من اجل اخير ، الثورة  
المهدية من اجل الدين - انصار المهدي ، هل كانت الثورة ضرورية  
اسمائه خردون باشا ، تبيين ودي باشا ، اعدان المهدي - اقله  
وادي باشا - تبيين جيد في در باشا على - عماله ، استعاء  
جيد في در باشا مصر - تبيين علاء الدين باشا ، تبيين هكس باشا  
حاكم عسكريا ومزينة ، تبيين خردون باشا من قبل الدولة  
الانكليزية واليا صبا على السودان بنصه احلايه ، احطاء  
خردون باشا ، سقوط الخردون في يد المهدي

تناول الكتاب المسألة السودانية باهتمام منقطع النظير هذه الأيام  
وذلك بعد أن ظل الحديث عنها وقتنا على الصحف دهورا طويلا تنقل  
من أخبارها نعا صغيرة من وقت لآخر ، ومرد هذا الاهتمام البالغ -  
في اعتقادي - إلى نضوج الوعي القومي في السودان . هذه حقيقة لا سبيل  
إلى سكراتها وإن كان مما يدعو إلى الأسى أن يقع بعض أبناء السودان  
من أحوالهم وأبنائهم عمومهم المصريين موقف الانكار قديما فالصغار ،  
طانيا للانفصال ، حين جد الجدد وأنى ليوم المصيب ، فتجاهل السودان  
مهر شرا بخير ونفرا بمعروف وسيدته بفعل حسن .



نعم أن هناك من يدعون إلى الاتصال ويقولون بل انت غيرهم :  
 و انظروا إن المصريين يريدون أن يستعمروا السودان حتى يستبدوا  
 أهله ويستبدوا بأمور الناس ويستأثروا بحيرات البلاد ويحصدوا ما في  
 الماضي ، وفاتهم أن مصر الأم العارة الشقيقة ما استهدفت في الماضي ، كما  
 ولن تستهدف في المستقبل ، استعمار ، السودان . وكأني بمصر ولسان  
 حالها يقول : كلنا في الهم شرق ، وراجبنا أن نرصد جهودنا حتى يمكننا  
 الخلاص مما نحن فيه من محن وازراء . حتى اذا استرجعنا حقوقنا المنصوبة  
 و استطعنا كاشقاء أن نتعاون فيما بيننا على البر والتقوى ولا نتعاون على  
 الأثم والعدوان .

أما عن ما في الماضي المزعومة فاعلمك التاريخ قلب صفحائه وموقف  
 تجد أن من سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٨٤ كما أنا رأيت بدا واحدة وكانت  
 الحيرات موفورة والرخاء شاملا والتقدم مطردا ، على أن اعصارا مالم  
 حتى قام بعد ذلك قلب كلانا في باضته .

وفي سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٢٤ كنا أنا وأنت مغلوبين على  
 أمرنا عدونا المشترك يعمل على استهلاكنا واستنزاف دماننا واشاعة  
 الكراهية والبغضاء في نفوسنا بعضنا ضد بعض وما زال هذا العدو حتى  
 يومنا هذا يقدم لسيئه للوطني ويحني الحسنة عنه وعلى هذا السن جرت  
 الحكومة فمضى أمي إلى المحسن وتحسن إلى المسيء .

و فتحت عينا أن نعلم الواقع ونزل عند أحكامه ولا نميل مع

الطوى لأن كل تفكير محرّكة الشهوة صائر إلى الفساد . وكل تدبير تدوّر  
تلعفة مصيرة إلى الافتصاح . فتدبروا الأمر بإسادة قبل أن تهجم عليكم  
عهد العناء والصنف والخضوع والاستسلام والرضا والاتكان وانكم أن  
لم تفتبروا بالمضى ويستهدوا من دروس المواقف خفت عقوباتكم فلا  
تشتروا العاجل بالأجل وإن كررنا قوله تعالى .

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم . »  
« يستمروا الله ويقولوا أفرأى ما كنتم تعملون . »

واعلم المذنب إلى ما كنا بصددّه فقور :

درج كتاب التاريخ على وصف الفواد والنعماء والثوقات وحسب  
كثرة لم يعض على أرض السودان ولم يسمع وينأم غير هؤلاء نفواد  
والزعماء والملوك . وكأنما كانت الأمانة لسودانية عمول عن الحوادث  
يحدثها عن العالم سيج سميك لا يتعد منه شيء . وكأنما فليت شخصية هذه  
الأمة في شخص حاكمها بأمرى تاريخها هو سيره ذلك الحاكم المتصرف في  
مقاديرها مهما ساءت سيرته وكانت حياته مهيئة بالشروع والآقام .

لذلك رأيت لزما على أن أبادر - قبل الكلام عن الثورة المهدية -  
بأحدث عن السودانى كما عرفت فقيحه اختلاط ومباشرة دامت أكثر  
من ربع قرن وهذا أقل ما يقتضيه عرفان الجمل . ما يدعو إليه الواجب .

عطر السودانى على الكرم وكرم من شيخ يملك ثروة طائلة نزلت  
منه إلى الشرف فاني ماله في الكرام ضيف حتى أصبح في آخر أيامه  
فقيرا يكاد لا يصيب إلا الكفاف فانا لما الأجل جمع أولاده وقال لهم

و يا بني الاعراب اجعلوا نفوسكم وأموالكم لضيقكم فتعوزوا بحسن السيرة واحترام الناس لكم ، ثم تفيض روحه وهو مبتهم مسرورا .

ونذكر من الصفات الانسانية السامية التي تدس على سماحة الطابع ورقة الوجدان وتقدم المرء في سلم الارتقاء الاجتماعي وهو صفة كريمة تنفرد عنها عدة خلل نبيلة . فالكريم لا بد أن تطوى حجابا على الرأفة والإيثار والجدة والاحساس بآلام الغير ، والسودانيون فقيرهم وغنيهم على سواء يعتبرون تكرم واجبا لا معصى عنه ولا شكرا عليه .

وكثيرا ما يقصد الحلة غريب فتتنافس العائلات في الطهر به وهذا في ذلك نادر طريقة تكشف عن أريحية أصيلة وكرم طبيعي .

واسوداني علاوة على جوده اللطائف وإحسانه الذي لا يقبل على الفقراء وما يدفعه من ضرائب للحكومة يؤدي سنويا جزءا معلوما من ماله المحروم وصاحب الحاجة باسم زكاة رمضان . فهو اشتراك بالقطرة من هذه الناحية .

واسوداني لا يتخذ إلى المنزل وانصغار مهما تجلت له وجده المصاعب والأفدح . وهو لا يطمح إلى المعالي إلا لئلا يستأعبدا وشجرة واسعة بين أفراده وفي عشيرته . وهو يؤثر الخشوع على العار والهووان . يدفعه الفخر إلى سامي الفضائل الطبيعية . وعزة النفس تنهض به إلى الانتقام أو طلب الحق أو الأخذ بالثأر . وهذه تعد من انتمائهم الشريفة يقيم لها السودانيون منزلة رفيعة ويقربونها من التمرات من الضرورة المقدسة .

فإن مدينة أحد الثار تبقى مستورة في صدورهم كالثار تحت الرماد فتأتي الريح ويكشف الرماد فتظهر الأحقاد بالانتقام .

ويمتاز السوداني إلى جانب كرمه بحياته الراضع . حياء الرجولة الذي ينزه صاحبه عن الصعائر ويسمو به عن ارتكاب النقائص الخلقية . فقلبا تجدد سودانيا يرفع من شدة السكر أو يتنزه بالانفاضة الشائنة التي تقبوا عنها الاستماع والسوداني من الراحدة الدينية مؤمن أعقق الإيمان ملتزم حدود الشريعة قائم على أحسن وجه ممكن . وهذا التمسك بالدين بدعوه إلى البر ويحض على مكارم الأخلاق وهو لذلك من أسباب نشر المساواة وتفشي العدالة بين الناس .

والسوداني موفور الذكاء وقاد الفريضة قوى الذاكرة يحفظ الحوادث تفاصيلها الدقيقة مهما بعد لها العهد . ويتجنى دكاء السودان وما يتجلى به من صفات عقلية وخلفية فيما يظهر عليه كل أولئك الزعماء والقادة والمصالحين الذين يتسلطون زمام البلاد كلما أدلهم الخطب وتلفت الأمة إلى زعيم قادر يستطيع الوصول بسميتها إلى بر السلامة بل وأن ظهور هؤلاء القادة والمفكرين السرم لا سطح دليل على الشهادة الباهرة والإمام الصادق الذي يتجلى بهما أبناء السودان الميامين . وهذه الصفات أهمها هي التي ساعدت - إما مباشرة وإما بفريق غير مباشر - على ظهور المهدية في السودان ونجاح دعوتها .

• • •

والمهم به ، وما ننظرى عليه من رغبة متعة في الخلاص من المصير .

التي يشكر عنها قوم من الأقوام وما تهدف إليه من بناء حياة مودة سعيدة قديمة العهد ظهرت في الحقيقة في صور متنوعة وفي عصور متعاقبة في تقدم ولدى أقوام وشعوب اختلفت عاداتهم وتباينت أساليب حياتهم . وآية ذلك أن الأمم معايرة كقدماء المصريين والبابليين والفرس واليونان والرومان وغيرهم ، كانوا جميعا يعتقدون عند اشتداد الحطوب في ظمور (مخلص) أو مهدى إذا حاز لنا قول ذلك مهمته (تخلص هذه الشعوب) من أمة كوارث اقتصادية واجتماعية أو دينية اسكور قد رأت بهم وتاريخ الأمم انقضيته مدمم بالثورات والحروب الداخلية التي ترتد في أصولها الى رغبة الخلاص من هذه الكوارث . على يد ذلك (المخلص) أو (لقادى) أو (المسيح) أو (المهدى) أو (المصالح) أو (الإمام المنتظر) متى غلب البأس على أمة صارت لا تفكر إلا في ذلك المخلص فيستولي عليها شئ من أهوس وتصبح سرية الانقياد سهلة التصديق أى أنها تكون بمثابة آله عماء في يد الظالمين في الرياضة وأصحاب الأغراض الشخصية الذين يستخدمونها في قضاء مآربهم حتى إذا نجحوا في قضاء وحزم تركوها وشأما قماى بعد الفشل انواع العذاب وتنتظر (مهديا) آخر يصدق في هذه المرة ولا يكذب قد يظهر الله أو تسبقه الى آخر الزمان .

والذى تؤيده شواهد عدة من التاريخ أن فكرة المخلص أو المهدى ظهرت بين الطبقات المقهورة وهما لا يحدث إلا بعد انتقال الأمة من دور البداوة الى دور الحضارة حين تأخذ السلطة المركزية تنمو وتقوى وتسمع التجارة ويشيع بين الناس التعامل بالانقود وتكثر عوامل الغنى والسيادة

أى عوامل انحدار والتعريق بين الأمة الواحدة وظهور الطبقات بينها وما يعقب ذلك من نزاع مستمر بين هذه الطبقات فلا يبقى لدى المغبون سوى الأمل في ظهور (مخلص) يبعثه الله لينقذه من العبودية ويرد إليه حقه المهدوم وبزيل الفوارق بين الطبقات .

وقد تصحك الآن من ثورة قدماء المصريين الذين قاموا به منذ خمسة آلاف سنة لكي يحفظوا حقوقهم في الخلود بعد الموت حيث كان يفتاق لهم أنه لا يخلد بعد الموت سوى المراعنة ونظام الدولة . أما عامة الشعب فالى الهاوية والعناء المحقق ولذلك لا يجوز لواحد من عامة الشعب أن يبنى ضريحاً على قبره ولهذا لسبب تار الشعب المصرى وطب من سكرته الخلود بعد الموت .

وفي السودان اشتعلت ثورة المهدي بسب مخالفة تعاليم الدين الحنيف وتبرم السودانيين من النظم القائمة ولما كان أنصار المهدي قوماً بدائيين فقد انقلب القصد وبدلاً من التفكير في إحدى الوسائل لإصلاح المماسد وإزالة تبذع والحراقات استبد بهم الخوف على الدين وسيطرت على أذهانهم الرغبة في المحافظة عليه ، بل صارت ليدع والخرافات التي كان يجب العمل على إزالتها جزء لا يتجزأ من ذلك (الدين) الذي تمسكوا به واعتقدوا بصحته وآمنوا بصدق الداعين إليه من فقهاءهم وعلمائهم ، وانحصر اهتمامهم في الدفاع عنه كعمل لا غنى عنه إذا هم طمعوا حياة سعيدة بعد الموت وعلى ذلك فقد فصلوا الحياة الآخرة على الحياة الدنيا

وصار كل ما في هذه الدار - دار الحياة الفانية - صغيرا في أعينهم . هم إنما يعيشون في هذه الدنيا وكأنهم يسوا منها . وقد تمكن من نفوسهم مذهب التعدم في انكار كل ما في الوجود ووجوب العمل بما يقضيه تحريك وتلزمه الإبادة لهم به دون ولا ينون وقد استجاب الناس الى هذه الثورة الجائرة بدرجات متفاوتة وكان منهم المنتظرون كعرب البقارة والريقات ودعيم وكنانة فانغمسوا في أعمال السب والنهب وسفك الدماء واستباحة الحرمات قمع على أيدي هؤلاء الخراب وسقطت البلاد في الهاوية ولم يبق لعقلاء القوم سوى التسليم بعشيته الانذار .

والواقع أن هؤلاء العربان لم يبقوا على شيء في طريقهم إلا أبادوه أو نهبوه حتى الأضرحة والمساجد والسواقي والشواذيف والواشي والمرووعات وغير ذلك ويبدوا أن سبب هذه الشرور وعلة هذا الفساد أن هؤلاء العربان ليس لديهم من القوات والعتاد إلا ما يستحسنونه بالإكرام من أيدي الأهلين ومن قاومهم عذبوا كافرين مكرا بل المجدد يستحق اللعنة والعذاب .

فلأجل أن نأكل هذه الجحافل الكبيرة ولأجل أن نجد من القوات والعتاد ما يصبها على الجهاد وفي شأن الله) كان لابد لهم أن يعمدوا الى ما عمدوا إليه من الاستيلاء عنوة وأقتدارا على كل ما وصلت إليه أيديهم . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هؤلاء العربان قد نشأوا على البراوة ودرجوا على الخشونة ، وحياتهم رحلة وانتقال وإغارة وقتل وسلب فلم يكن للذن ولا للزراعات في نفوسهم من التقدير والاعتبار ما لها في عوس

أهل الحضرة الذين استطاعوا العيش في ظلها والإقامة في رحمتها ، وكأني  
بهؤلاء العربان وقد أرادوا بفعلهم هذا أن يزيلوا كل أثر للحضارة في  
السودان وأن يطبعوا البلاد بطابعهم الخاص وأن يخمدوا عليها مطهر  
بداوتهم الذي تؤثرونه على ما عداه لاسيما وأن الإمام المهدي ، محمد  
أحمد ، كان قد أوصاهم بالعمل على ترك الدنيا وزخرفها والرجوع فيها لقاد  
الفوز بنعيم الآخرة فركبوا من استطاعوا سلكوا طريق النهب والاعتصاب  
وسفك الدماء وقضوا على معالم الحضارة في كل مكان نزلوا به يطلقون  
الاعتة لغرائزهم اسكبره وينتمون لأنفسهم من أركك الحضريين  
و ناس بحر ، الدين دامت لهم الدنيا وتذوقوا بدائنها وتعالوا عليهم بما  
يملكون من منافع الحياة .

وكان الأنصار ، أنصار المهدي ، وهم الذين يسمون بالدرأويش  
من عرب البدر سكان الغرب الذين غلبت عليهم بداوتهم فكانوا من  
الرحل لا يستمرون في مكان ولا تربطهم بالأرض التي يسكنونها روابط  
وثيقة كما هو شأن الزراع وهم يتنصرون مواسم الفيت حتى يخرجوا بكل  
مالهم من مساو ويل وأبقار وأغنام وخيول يضربون مرعى . لا يبذلون  
جهدا عقليا في تنظيم دينهم الطبيعية كما يعمل أهل الحضرة بل يعتمدون  
على ما تفعل الأرض والسما فإن أمطرت السماء دعوا وإن احتبس المطر  
في مكان وحلوا منه إلى مكان آخر وينتمون هؤلاء البدو إلى قبائل وتعيش  
هذه القبائل في نزاع دائم ولم يطبع البدوي على الاشتغال بالتجارة فإذا  
اشترك مع غيره من يسفونها صار عالة لا يمدد القيام . دور الدليل الذي



عرف الطرق والدروب أو الخارس الذي يحس قوافل التجار من اعتمادات العربان الآخرين .

وأفراد القبيلة الواحد متضامنون فيما بينهم أشد تضامن بهرون أخاهم طالما أو مظلوما وهم يد عن سواهم . إذا ارتكب أحدهم جناية حملت القبيلة مسئولية الجرم وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ولرئيسها حيرها وإذا أتت قبيلة أن تحمي لها إلى قبيلة أخرى ووالاها وحسب نفسه فردا من أفرادها . فوطن البدوي قبيلته وهذا الشعور الذي يربطه بقبيلة يحميها ويحميه هو المسمى « بالعصبة » .

ويخطئ من يظن أن أهل البداوة لا دين لهم فليدوى دين وعقيدة ثابتة ويعتمد بوحداية الله عز وجل ويسلم برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فلا يخطو خطوة دون أن يذكر المولى عز وجل وفيه الكرم ويعتقد البدوي ألا مرد لحكم لقدر لأن الله سبحانه وتعالى هو المسبب لكل شيء . من خير أو شر في هذا العالم ولا إرادة للإنسان ولا حرية في اختيار الطريق الذي يسلكه . فالإنسان ذرة حقيرة في يد القدر بفعل القدر بها ما يشاء وهم من خارقة يعزوها البدوي إلى فعل الله وإرادته . فيبدا أسماء صافية والأرض في راحة وهناء إذ بريح عاتية تصاعد كاعمة نحو السماء فتعدوا زوابع مربعة تعقبها اضطراباب جوية — من يرق يحطف الأبصار ورعد يصم الأذان — الله مبدع كل ذلك . الضيفر الصغيرة والوحوش الضارية تدب وتسمى وراء رزقها .

المرئي يكمل لها القوت والحياة . الخصب والجذب ، الخير والشر . الخطايا  
بأنواعها ، الفقر والغنى ، والتجبد والهلوان ، والكذب والصدق ، والموت  
والحياة . كل ذلك من عند الله .

ويرسم البدوي في ذهنه صورة الله ، عر وجل أنه جانيلاً في  
الأرض ويده سيف المنة وكأس الحياة . فيأتي ذلك طريقاً مجتهداً .  
ويهي الآخر ماء الحياة .

ويحرص المربان على تأدية فرائض الدين وفي مقدمتها الصلاة وهنا  
يأثرى يصح لنا التساؤل هل يحفظ المربان دحة الكتاب ؟ الله أعلم .  
إن عندنا عظماء منهم يحلون نصها وفصلاً عن ذلك فإن لهم في واقع الأمر  
صلاة خاصة بهم ذلك بأنه إذا أراد أعرابي الصلاة انتصب قائماً ثم رفع  
وجهه إلى السماء قائلاً : يا الله عوّى لسماء سمائك والأرض وطائرك :  
أقوم وأركع على جلالك ، الله أكبر ، ثم يصرب يديه على خذييه ويحمر  
ساجداً وبذلك تنتهي الصلاة وهي الصلاة القصيرة في عرفهم وأما  
الصلاة الطويلة فيعرفها العربي قائلاً : يا الله . قامت الصلاة والله أقامها .  
بارب فرشت فرائق تقبل صلاتي . اخذ الله حمد البلاد بالمطر . حمد الأثني  
بالذكر . حمد العين بالنظر . حمد من شاف عوده ومتر . يا ماحي  
السيئات تمح سبائتي . يا كاسب الحسنيات تكسب حسناتي . وترحمي  
وترحم أهلي وأموالي . أجورني من الإثنين ، منكرونيك ، إلى يديهم  
بمطرق حديد : استغفر الله على ما أخطيت . واستغفرك على ما أسيئت .

وأستغفرك على ذلة جهيت . وأرحمني حتى وميت .

وإذا سألت إعرابيا : أين الله قال : إن الله : إلا الدنيا كأن له  
جوها أسرع من وميض البرق بطوى العالم من أقصاه إلى أقصاه في لمح  
البصر ويراقب الأعمال كلها ويعلم الخفيات .

هذا ما سمعناه من أخواهم سطرناه ليدرك القارىء الكريم ما كان  
عليه هؤلاء الانصار ( أنصار المهدي ) من الفهم والإدراك على أنه لما  
يجب ذكره أن هذا الكلام يطبق على عامة اليدو وحسب إذ هناك  
فقهاء أجلاء يعرفون أصول الدين ويؤدون الصلاة كما أنزلت ويحذرون  
في قيادة الناس إلى الهدى والنور .

وليس الغرض أن نحوص في محبة ادعاء محمد أحمد وعدم محبته بل  
نكتفي بأن نشير على القارىء الكريم بمراجعة ما أبداه علماء وفقه من  
الآراء بسديده والإرشادات المفيدة وبخاصة رسالة العالم الجليل السيد  
أحمد الأزهرى وقد أثبت هذه الرسالة لقيمة ونعوم شقير . فى الجزء  
الثالث من كتابه تريح السردان القديم والحديث وجغرافيته .

ولعل أهم ما يؤخذ على دعوة الامام محمد أحمد أنها لم تكن صريحة  
تهدف إلى العاية الظاهرة التى كان يهدف إليها السردايون وقت ذاك  
وهى تخليص البلاد من حكم الأجانب والكفار الذين أزهقوا أرواح  
لبلاد وصادروا أرزاقهم وأقواتهم تحت ستار العمل من أجل إبطال

الرق والنخاع بل لجأ المهدي مدلا من ذلك حتى يكسب الاموان  
والأصار الى الاعتماد على الالهامات العالية وشطحات المنصوفة  
والدراویش وهى أشياء وان كان قد غمض على أتباعه ادراك حقيقتها  
بدقة معرفتها على أفهامهم وقتذاك من التجارب الطويلة مدة خمسة  
وسب سنه لم تثبت أن كشفت للناس عن الحقيقة وجعلت الكثيرين  
منهم يشعرون شعورا عميقا ثابتا بأن تلك والخيالات لم تكن الا  
جبال نصبت للتزويه على العامة ولتضليلهم فكانت صدمة غنية تلك  
أنى أرغمت اهل يدين على الاستماعة من سبائهم فأدركوا - بعد فوات الوقت -  
أنهم كانوا آلات محرکه فى أبهى طعمة من الاقمار بين الدين استطاعوا  
أن يحبكوا أطراف مؤامرة واسعة النطاق تمكنهم من الاستئثار بكل سلطة  
فى بلادهم وإن أضى ذلك إلى حدوث سكة جسيمة تأتى على الحرث  
والنسل وتلقى بالسودان فى أحضان الفوضى الخطيرة .

نعم كان الأجدر بالامام محمد أحمد وأحرى به أن يكتمى باستغلال  
العوامل التى تضافرت على إثارة شعور الناس ذلك الشعور الذى  
كان يحمل فى طياته بذور الحق والضيقة والانتقام منذ أن حصر  
حتوين بكر حاكم على خط الاستواء وبدأ عهد التقييل والتعريد والإبادة  
فى السودان الأسرى الذى ألهب الشعور ولب السودان ضد الاوربيين  
وأهل اللبانات وكانت فى طبيعة الغاضبين فثانين جماعه ( المرافيت )  
من الموظفين وقول جيش سليمان الزبير وهرود الرشيد والصباحي  
وسكان البحر الأبيض ثم جحافل الجلايين الذين تمت أولادهم وميت

سأوهم في دارفور وغيرها وذلك إلى جانب كل أولئك الذين ساء لهم أن يروا البلاد تفرغ في تهسق والدعارة والمساد . أما أن يدعى الإمام محمد أحمد الألطامات العالمة ومصاحبة مسدنا الحضر واتخاذها جاسوساً على الناس وأنه خليفة النبي خاتم الرسل وحيث يقول أنه رآه رأى معين . في حاله لبقطة وأنه أجلسه على كرسيه وملكه سيفه وغسل قلبه . . . إلى آخر ما ذكر فذلك ما أخرج حركته عن دعوة الإصلاح الإلهي والدين إلى نورة هوجاء جمعة لا تستند إلى شيء من الحق أو الدين .

وما يدعو إلى الأسف أن المهدي أعلن الجهاد وصادر يحرش عن قتل النصارى في وقت كان السودان يبعج فيه الأجانب المسيحيين من التجار وقناصل الدول وجمعيات التبشير الكاثوليك والاورثوذكس والبروتستانت ساء ورجالا وهبانا وراهبات فأثار عمله هذا الأذى والدمعة ومكر التكبر من يوطيد أقدامهم في مصر وأكسبهم من ذلك الحين عطف وإعجاب الدول الأوروبية وصان مؤازرتها . ذلك بأن المسلم أصبح في عين المسيحي مجردة درويش ، يجب إبادة دون شفقة أو رأفة . وأية ذلك أن كشترا أباح لنفسه الاستمرار في ضرب الدراويش بالقنايل في ( كرري ) موقعة أم درمان مدة طويلة بعد هزيمة هائلة . كما هدم قبة المهدي بالقنايل بل دفعه الحقد والنفق والاسهتار إلى نشر قبر صاحب الدعوة الإمام محمد أحمد وإلقاء عظامه في مستنقع راوور وأوطايح ، كما جاء بكتاب ، وليس يادح ، أو إلقائها في النيل كما جاء

بمسيرة المسير تشرشل في مارس وأبريل سنة ١٩٤٥ من مجلة الغلال (صفحة ٣٩٧) حيث نقد تشرشل كمنشئ لثوره الأخير ويرى الأول أن صيغة الانتقام و لأر لغردون قد أذهمت كمنشئ ورجاله عن واجبه كعزيرين شرفاء ثم يقول . إدمادتب هذا الجنان المسجي في التراب تحت القبة المهدية يوصل رأسه عن دمه تحمل الرأس كرمز انتصار . ويقدم بالبدن الناعس في النيل بأمر لسردار وشمس القبة .

ومن واجبتنا وقد تضمنت كل هذه السنين الطويلة أن تتسائل الآن هل كانت الثورة المهدية أمراً لا مفر من حدوثه ؟ الواقع أن هذه الثورة أمراً محزوماً وغير محتوم في آن واحد . فقد كانت هناك أسباب كثيرة للثورة ومع ذلك فقد كان في الأمكان إرادة هذه الأسباب إذا أعطى الإنسان شيئاً من اللياقة وحسن التصرف وبعد النظر فإن أهم هذه الأسباب إطلاقاً فكان مباحنة البلاد بضرورة إبطال الرق فوراً ودون إهمال وذلك بطرق وأساليب هدامة ووحشية فكان الإلغاء — سياسة إلغاء الرق بالسيف والنار — بمثابة حرب صليبية هو جاء ومطاردة صارمة تشيع الرعب في النفوس والفرع في القلوب . وكان (الإلغاء) كارتة وزادت الحمرة وعظمت البلوى حينما شاع في طول البلاد وعرضها مقتل سليمان الزبير وأعمامه غدوا وهرون والصباحي وأخيار الفلك بالجلالين العز وسمي ناسهم في دارفور وفي كردفان عن نحو ما تقدم ذكره وحدث ذلك كله مدة حكم غردون عندما كان حاكماً عاماً على السودان بين عامي ١٨٧٧ . ١٨٧٩ فامتلات النفوس بالخوف والحقد والفرع المتزوج بالحزن

والحسرة وضح أهل السودان بالشكوى وعلت صيحات الاستنكار في كل مكان وصارت أبلاد بغلي كمرجل على وشك الانفجار فكنت أبها مرث ترى قلوبا مخرجة وأصواتا مبهوكة ودهشة عصبية بأمة في الأيدي ومرتسمة على الوجوه وكنت حينئذ فصدت بحمد السودانيين المشردين من قلوب جيش سليمان وزملاته يهيمون على رجوعهم سادى البصر ، خفيفى الخطى ، كأنهم يشعرون بثقلهم على الأرض - ويلوذون في أطراف الأماكن الثابتة كأنهم يشعرون شغافهم على الناس يقتسمون خلعة كأنهم يشعرون بصفتهم على هواء غيرهم - لا يلقون غير نظرات الاحتقار ، ولا يصادفون غير بساط السحرية والاستهزاء فهم من الناس يفرون وإلى أنفسهم يهربون . يأكل الأسى قلوبهم ويحرق الآفات العميقة صلوعهم ويبدو الحزن على الوجوه حزنا تسوده الدهشة والدهول يتم عن استسلام صاحبة لأحكام القدر .

وكنت نرى في كل مكان الناس يتكلمون بصوت خافت - أنفاسهم منقطعة يستبد بهم اليأس وكانهم في مأثم وكانت أرواح ( الشهداء ) من ( الجلابة ) الذين قتلوا وعذبوا وشردوا ما زالت ترفرف فوق الرموس وكان أشباح هؤلاء الضحايا ما زالت تطوف في كل مكان

على أن هناك حقيقة ثابتة كثيرا ما أعلمها بكتاب وادورجون هي أن قتل سليمان لزيير ولقضاء عن قوائمه واحتجار الزبير بأشياء في مصر ثم قتل الصياحي وهارون كان من أهم العوامل التي ساعدت على

نجاح المهدي ، ومكنت محمد أحمد من الأمان في دعوته ، وحشد جموع  
السودانيين حول رايته ، وذلك لسببين . أولهما زوال ، اشخصيات ،  
السودانية العظيمة من الميدان وهي الشخصيات التي أثبتت الحوادث أنه  
كان يوسعها أن تتولى مهام القيادة في هذه الأوقات العصية ، وفي  
استطاعتها أن تجمع حولها الآن المتذمرين والخائفين من التجار والجلالين  
الذين صادر غريبتهم على وجه الخصوص وأعوامه متاجرهم وأموالهم  
وأرزاقهم ، وأوقع بهم هو وأعوامه كذلك مقتلة عظيمة ، فاصم  
الجلالين وعددون من الأهلين على نحو ما شهدنا إلى الصباحي  
وسليمان ، وهارون على اعتبار أن هؤلاء قادة حرب من المنظر أن  
يتم على أيديهم طرد الأجانب ( الكفار ) من البلاد بقوة السيف  
والانتقام للأمة من الشرور والاثام التي أرتكبتها الطغاة الباغون .  
ولم يكن في مقدور محمد أحمد ، وهو النقيب الذي بدأ دعوته من أول  
الامر بنشد مجرد الإصلاح الديني والاجتماعي ، وإحياء الأمة ، أن يفقد  
حركة واسعة من أجل لتحرير والخلّاص ، تعتمد على أساليب العنف  
والشدة . ومع أنه قد مر عن هذه الحوادث الآن حمسون عاما وزيادة  
فإنه ما يزال بعض عقلاء السودان وحكامهم يذكرون أن من أهم  
أسباب نجاح دعوة المهدي قتل سليمان وسائر الرعناء القادرين على  
الكفاح ، واحتجاز أوزير رحمه بإشافي القاهرة على وجه الخصوص .  
وأما السبب الثاني وهو مترتب في الواقع عن السبب الأول فينبغي  
في أن الأمام محمد أحمد استطاع استغلال الظروف الناشئة وقت ذلك



تبعه لإعدام سليمان وأعمامه واستشهاد الصباحي وهارون وغيرهما استملا لا مكسب من تحوّل بحرى دعوته الأصلية من المطالبة بالإصلاح وإزالة المساوىء الخنثية إلى ثورة عاتية شعارها تخليص الدين نفسه من الأخطار التى صارت تهدد بزواله على أيدي الكفار الأجانب أمثال غردون ، وأمبيليان ، وجسى ، وبسباليا ، ولبتون ، وسلاطين وغيرهم . ولم يلق محمد أحمد فى إجراء ذلك التخيير أية صدوبة ذلك بأن فلول جيوش سليمان والصباحي وهارون ، وفلول الجلاليين الذين ( استشهدوا ) منهم عديدون فى أثناء القتال المستمر بينهم وبين رجال الحكومة صارت تصرب فى القياقي والوردبان على غير هدى ، فتفرق جماعاتهم إلى الانتقام ، وتطالب ( قائدا ) آخرو ( مخدعا ) ينضوون تحت أوائه ، يشعل الكفار القتل حرا بالارحة فيها ولاشفقة ، ويسأصل شأفتهم من هذه البلاد استصلا .

وكان فى هذه الظروف الدقيقة ، أن تعالت الصيحات من كل مكان بأن ( الدين فى خطر ) وأن واجب انقوم أن يعملوا على إمداد متعاضدين لتخليص الدين من هذا الخطر وكانت هذه عبارات حزت المشاعر وأنات فى النفوس ، ونزلت برذا وسلاما على قلوب الجلاليين ومعهم سليمان والرعاء الآخرين ، إذ وجدوا فى الدفاع عن الدين غرضا شريفا تحشمه لفرأئض على كل سودانى مسلم ، هم لا ينضوون تحت لواء المهدي للانتقام وحسب مما لحق بهم من أذى على أيدي غردون والكماريل ومن أجل تخليص الدين الخفيف ، والاستشهاد فى سبيل الله . وسرت الدعوة لتخليص

الدين من الخطر الذي كان يهدده سرياً تنار في الهشيم ، فانضم الآن إلى صفوف المجاهدين كل أبناء السودان في الحضر والبادية على السواء . أي كل أولئك الذين ذاقوا الأمرين في العامين اللذين قضاهما غردون حكاماً أي : حاكم عام ، وصار شمار الجميع في يومئذ ( الدينية ) الجديدة ( في شأن الله ) أي الجهاد من أجل توحيد الدين و لاستشهاد في سبيل الله .

على أنه حدث والبلاد تغلي بالثورة على هذه الصورة من انفصاها إلى انفصاها ، أن غادر غردون باشا السودان . . . وعلى أثر تدخل الدول وعزل الخديوي إسماعيل ، وكان ذلك آثار خطيرة في السودان . فقد هيمنت على مصائر الوادي عند بداية الاحتلال البريطاني حكومة ضعيفة في القاهرة لم يمكنها التمرغ في شئون السودان تقريباً تماماً يساعد على إخماد حركة المهدي قبل أن يستفحل خطرهما . بل أن تدخل الانجليز في شئون السودان في سنوات الاحتلال الأولى لم يلبث أن زاد المهدية قوة على قوتها حقيقة عينت الحكومة محمد رؤوف باشا حكاماً أي حاكماً عما عني السودان بدلاً من غردون ، وكان رؤوف رجلاً محسناً . له من واسع الخبرة بشئون السودان - بفضل السنوات الطويلة التي قضاهما في الخدمة في القطر الشعبي - ما يجعل الانتصار على المهدية أمراً ممكناً . لو أن الإمدادات الكافية وصلت من القاهرة من جهة ولو أن حرية العمل قد كفلت له . ولكن مخاوف الإنجليز من أن يستعيد تجار الرقيق والجلالون نشاطهم بعد ذهاب غردون سرعان ما جعلتهم يصفطون على حكومة القاهرة حتى ترسل أوامرهم المشددة إلى رؤوف في ضرورة القضاء

على الجلايين ومطارحتهم دون هوادة ووجود رؤوف لزاماً عليه في هذه الظروف أن يبتغي في مراكرهم أو نك الأجانِب الذين عيَهم غردون في مراكن الحكم والادارة فكان استبهاه هؤلاء من الاخطار الجسيمة .  
وفضلاً عن ذلك فإن رؤوف اشاً لم يحقق ما عده غاية الآمال لتأثرته في معالجة دعوة الممدى وكان هذا التمدد خطاً جسيماً آخر ارتكبه رؤوف . وذلك كله في الوقت الذي أخذ رؤوف على عاتقه مطاردة الجلايين والاستمرار على سياسة السيف والنار التي بدأها غردون وأعرائه ( الكفار ) فوجد محمد أحمد في ذلك فرصة مؤبدة بلامعان في نشر دعوته وتحريك الثورة الجامعة ضد الحكومة التي استعانت على حد قوله بأجانِب وكفار في إزالة صنوف العناب وثقتك والإدراك بالأهلين قاطبة . وقويت الصيحة ( أن الدين في خطر ) فكثرت ترى السودانيين في كل مكان يرددون « الدين في خطر » وكيف لا يكون الدين في خطر وأنت ترى التصرفاتي بحكم مسلماً ويتحكم فيه وفي كل ما يملك ١١ بالها من مذلة ورياء من عاد كبير .

وعلى ذلك فقد نشط محمد أحمد في دعوته وصار يعزو ما حل بالناس من محن وكوارث إلى خطتهم في الدين وإهمالهم تعاليم الشريعة العراء . ثم أخذ بكثرة من ذكر الآيات القرآنية التي تحرم على المسلم طاعة غير المسلم ويشير بأن الله سبحانه وتعالى سوف يبعث رجلاً يصلح ما أفسده أعداء الدين ، ويشيد حكماً أساسه العدل والمساواة المطلقة ويمحو المساوىء والمظالم التي ضاقت بها الدنيا وضع منها السودانيون . وأما هذا الرجل

هو المهدي المنتظر . ثم أعلن محمد أحمد أنه ( المهدي المنتظر ) ومن شك في مدينته كهر وما أن أعس مدينته حتى أقبل الناس عليه بمثلون إيمانهم الصادق بمدينته ويمنون بالمر بالخلاص ، هم فيه على يديه . وصاروا يترجمون قائلين :

« بنتاثر الخير إجت ليتا . بظهور المهدي واليتا »

ولما نادى المهدي بالهسيان والثورة والامتناع عن دفع الأموال الخطلية - مال المصري - عات الصيحات في كل مكان :

« عشرة في قرية . ولا دفع الطلبة »

وكنى ما أيد الدعوة ورادى مكانه المهدي ورقة شاة . انهم القوات الصغيرة تلى أرسنوا محمد رؤوف باشا للقبض على محمد أحمد وإخماد الحركة وهي ما تزال في مدها .

فوال اتصارات المهدي على جند الحكومة واحضر رؤوف باشا إلى طلب النجدة من مصر ولكن الثورة العراقية في مصر صرقت حكومة القاهرة إلى التفكير جدياً في أمر ثورة المهدي . الخطورة واكتفت بأن استدعت رؤوف باشا وعينت بدلا منه عبد العاد باشا حسي حكمداراً على السودان .

وما كاد عبد القادر يصل إلى الخرطوم حتى حصنها وجند انهم كره من لسودانيين . وخيف عن الأهالي ما كانوا يشكون منه وفك حصار سنار ونكل بزعماء الثورة وحمل عشاء الدين على نشر الرسائل في تكذيب المهدي وأذاعته وصيق على أخصاره . الخناق وسد عليهم المسالك ، ثم حاصر المهدي وأخصاره في كردفان وهي مطلقه صحراوية - كان من رأى

عبد القادر باشا أن حصارهم فيها وقطع الموارد عنهم كميل - عمرو  
الزمن - بأن يعصى عليهم جميعا بسبب الجوع فلا تلبث بار اثورة أن  
تخمد جذورها ، وأدرك عبد القادر نجاحا ملحوظا فصار المهدي يتمل إلى  
الله في جميع صلواته قائلا : ، اللهم : قادر فكيفنا بطش عبد القادر ، .  
ومن الروايات الدائمة في السودان أن الإنجليز عندما علموا بسجاس عبد  
القادر غضبوا وشووا به لدى النخبوي زاعمين أنه يريد الاستقلال  
بالسودان - لا سيما وأن العراقيين هم الذين عتوه في هذا المنصب . .  
فاستدعاه النخبوي وكانت مصر في ذلك الحين في قبضة الاحتلال الإنجليزي

— . . . —

وعين النخبوي علام الدين باشا حاكما إداريا وعين سليمان باشا  
نيزاري قائدا عسكريا - في الظاهر . وحكس باشا قائدا عسكريا له السلطة  
المعنية على ١٢٩٠٠ جندي من قلول جيش عراقي وحرج هكس لمحاربة  
المهدي في كردفان على رأس هذه الحملة الكبيرة فكان نصف هكس الهزيمة  
اللاحقة في صحراء كردفان وسقطت المهمات والأسلحة والدخائر في  
أيدي المهدي غنيمة باردة . وعندئذ رأت الحكومة الانجليزية أن تعين  
غردون باشا حكاما على السودان وأن يعمد إليه باخلاص . . .  
وانظر كيف تمت فصول الكارثة على يديه !!

قبل أن يصل إلى بربر أ برق غردون إلى مديرتها حسين باشا خديمه بأن  
ينشر في طول البلاد وعرضها أن مصر قد نخلت عن السودان وأنه قد  
عين واليا مفوضا على السودان يتصرف في شؤنه كما يريد . . . وأنه

أى غردون قد ولى محمد أحمد سلطانا على كردفان ولقبه بصاحب العظمة  
وأه سيعزل كل الموظفين . وبولى نظار القبائل والعشائر حكاما . وأنه  
أعني "السودانيين من الضرائب المتأخرة لقاية سنة ١٨٨٣ كما أعفاهم من  
الطالية مدة سنتين من تاريخ وصوله ، وأنه سيخفض الضرائب إلى نصف  
ما كانت عليه وأنه ألقى كل الأوامر الخاصة بمنع الرق وأباح الاتجار  
به وفضلا عن ذلك أرسل غردون من كودسكو هدية ثمينة مع رسالة إلى  
عم أحمد ثم كلف حسين باشا بإرسال الرسالة والهدية مع رسول خاص  
إلى عظمته .

وعند وصول غردون إلى بربر جمع العمدة والنظار وألقى عليهم  
خطابا حوى أبدا كل ماتقدم ثم أردف قائلا :

« خلاص . حكومة الخديوى انتهت من السودان . وكل من يرغب  
في الذهاب إلى مصر يرسل على نفقة الحكومة . »

ثم أمر بمنح الطريق بين بربر وكردفان . لم يكتف غردون بما  
فعل بل أعلن أنه ملتزم إرجاع السودان إلى الحال التى كان عليها  
قبل الحكم المصرى . وعندئذ قصحه حسين باشا خليفه بالعدول عن  
هذا العزم قائلا : « ولو أن القبائل متناهرة ولا يربط بينها رابط إلا  
أنها سوف تنضم إلى المهدي فى آخر الأمر . » ولكن غردون لم يأخذ  
بنصيحة حسين خليفه باشا .

وفي بربر أصدر منشورا أمر بأن يصدق على أبواب المديرية وباب  
خطبة وفي شوارع المدينة قال فيه : أنه حضر بخصد اعلاء العساكر  
نصرية إلى مصر - وأمر بمنع الطريق بين بربر وكردون - وكان ممنا  
بسبب الثورة - وأن الجبابرة إلى الخديوي قد ترك السودان لأهل الخ  
فأخذ الناس يهاجرون إلى المهدي أمواجاً أمواجاً بعد فتح الصريق وبعد  
سماع تصرّحات غردون وكان من حملة من هاجر في مبايعة المهدي ، القاهي  
محمد الخير ، الذي عاد وفتح مديرية بربر فيما بعد باسم المهدي

وعند وصول غردون إلى الخرطوم ( ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ )  
استقبله على الشاطئ جمع من أجد وقناصل الدول ورؤساء الأديان  
والعلماء وقصد غردون إلى مبنى الحكومة ودخل ديوان الحكامة  
وكان غاصاً بالعمد والاعيان ولتجار فأخرج من جيبه فرمان توليته  
ودفع به إلى الشيخ المهدي فقرأه الشيخ على اليهود بصوت جهودي  
ثم وقف غردون خطيباً فقال :

« يفتضى هذا العلم قد سميت حاكماً معوضاً مطلق التصرف على  
السودان وسكانه ، ثم أمر بجمعت سجلات الضرائب وأحضرت إلى  
الساحة العمومية ووضعت فوقها السباط وعيرها من آلات التعرب  
وأضرم فيها النار ، فضلا عن ذلك فقد ذهب غردون إلى السجن وأطلق  
سبيل الجميع ، ما عدا القتل ، وورع منشورا على جميع سكان الخرطوم  
وضواحيها جاء فيه ما نصه : يا أهالي السودان إعلوا بأن ربحكم هي

غاية ما يرجوه وبما أتى أعم علم البقين أن إبطال تجارة الرقيق قد  
سأتمكم وهالككم ما وضعت الحكومة عليكم من قصاص وعلى من يزاوئها  
من تعذيب وغير ذلك مما صدر من الأوامر العالية بشأن تأكيد الغاشا  
فقد رأيت التماسا راجتكم أن أبطال كل تلك الأوامر وأمنحكم الحرية  
النامة فلا يعترضكم أحد في اتخاذ الرقيق لخدمتكم ، ثم وزع منشورا  
آخر قال فيه : (١)

ويا أهل السودان قد فصل السودان عن مصر فصلا تاماً فجعلت  
محمد أحمد المهدي سلطانا على كردفان وقد جتكم حاكما معوصا على السودان  
والنيت الأوامر الصادرة في منع الرقيق وأعلنت عن امتناعكم من  
الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ وعن الضرائب سنتين في المستقبل وسأجعل  
حكومة وطنية من أهل البلاد ليحكم السودان نفسه بنفسه ولقد ندمت  
الشيخ عوض الكريم بك أبوسن ليكون مديرا على الخرطوم بدلا من  
علي بك جلاب الذي رفته .

(١) عيب هذا التماس من مردود في إمام بين هذا لهو النيل بيكر من  
بيل ما دعاه لتسحق عفا لاسنواء لإبطال تجارة الرقيق .  
— أيداه عروون مملات عليه بالاس حررا عرافا وأسرير همام وحشي .  
— أيداه مردود في السودان حياها كلها حسب وزع من أهل صادرة  
الزوي .

— على ارباعت إختار لهذا القتران وعلى حركت كبتا هذا الامر الخطيرة  
— من أذنت حبيبة الخال الزوي : أهل نشط الدول وحركت ساكناء  
أقد وثق بحس عموم البريطان بحامش مردود وحسد عملهم ودافع عن سببته  
وردوها إلى ممتلكات الموات وتزولا على حكا الطرول المحلية وهم الذين كانوا  
بالاس بتدوين بالابطاء في الجاعة أتيق . . . . . ! !



وأصدرت حكومة غردون منشورا رسميا وزعته في أنحاء البلاد  
لخبراء أن الجنود البريطانيين أطمأؤا ثروة أحمد العرابي في مصر فاستخدم  
المهدي محتويات هذا المنشور في أغراضه وعنى عليه شرحا من عنده وأذاعه  
في طرئ البلاد وعرضها ومن قول المهدي في هذا المنشور أن حكومة  
مصر الإسلامية حاربت الانجليز حربا دينيا صليبية واستولوا عليها  
وبذلك سقطت مصر في يد الانكاري وقبض على كبراتها وأبعدوا عن  
بلادهم فصدفت الأهالي قول محمد أحمد لأن ما ذكره لم يكن سوى تأييد  
لأخبار الحكومة الرسمية .

وبعد أيام فرضت ضريبة على أصحاب الأملاك والحرف وهي  
ضريبة ( المردان ) أى تقديم اشجار الأرقاء لادخالهم في سلك الجنديّة  
فكان على الأهليين أن يقدموا اثني عشر ألف من الشبان الرقيق وكان  
ثمن الأمر حوالى عشرة جنيهات فما سمع النحاسون بذلك وقعوا ثمن  
الأمرد إلى الضعف . ذهبت هذه الضريبة بما كان متبقيا من مال قبيل  
لمدى أهل الخرطوم . تبع هذه الضريبة فرض ضرائب أخرى دفعها أهل  
الخرطوم واعتقد هؤلاء أن هذه الأموال جميعا قد أسربت إلى جيوب  
السادة من الموظفين .

وبما زاد الطين بلة أن أهل الخرطوم استيقظوا ذات صباح فوجدوا  
شوارع المدينة مليئة بأوراق مكنوب عليها باللغات العربية والانجليزية  
والفرنسية ديا أهل السودان عموما وأهل الخرطوم خصوصا قد استولت

حكومة بريطانيا على حكومتكم المصرية فاعلموا لأنفسكم الحرية -  
الامضاء - رجال بريطانيا المطمئنين .

درتاع الناس لهذا الخبر المشتموم ويثما هم يتدبرون معنى ما جاء في  
هذه الأوراق وإذا منشور آخر يخرج عليهم مهورا بامضاء كبير رجال  
الحكومة الانكليزية في مصر يقول : إن حكومة جلالة السلطان عبد الحيد  
لم تعد قادرة على تحمل نفقات حربها مع روسيا ولذلك باعت قسما من  
أملائها لتأدية لمصر وهو السودان المصري : لحكومة جلالة الملكة  
فيكتوريا وتقصت ثمننا لذلك حسين ومتين مليونا من الجنيهات وشروط  
البيع أن السودانيين اسوا من أحرار المسلمين بل هم ذنوح أرقاء تأخذهم  
الحكومة الانكليزية وتبيعهم في أوروبا والهند وغيرهما من بلاد البيض  
حتى إذا أمسكتهم حكومة إنجلترا جميعا وأنفدت فيهم ما تشاء وخالت  
بقائهم من بني جيلتهم أرجعت الأرض إلى حكومة جلالة السلطان ، أما  
حكومة جلالة الملكة فتعترض على أن السودانيين ليسوا بأحرار ولا  
مسلمين ولذا أرسلت مبعوثين من قبلها لشاهدوا بأعينهم هل القوم كما  
تقول حكومة الآستانة التي يعدونها قدوتهم دينيا وسياسيا أم الحقيقة  
أن ذلك ماشيء عن حيف الاتراك وبغصهم لتجسس العرق الذي منه  
السودانيون والامل وطيد أن يكون هذا القول صحيحا وهو رأى حكومة  
إنجلترا .

( ويحمل هذا المنشور قوم من السياح الانجليز بعضهم كثيرين )

مأجورهم وأخذوا يطوفون في أنحاء البلاد ويحادثون الناس ويعطونهم  
المنشورات ولسوء الحظ كانوا يلاقون مبولاً والأهلى بصدورهم كأن  
هذا المنشور منزل من السماء وكان حامله من الملائكة الطاهرين ( على  
حد ما جاء بمجموعة جريدة الأهرام سنة ١٨٩٦ تحقيق ١٨٥٠ ١٨٦٠ )  
واستغل محمد أحمد هذا المنشور وكتب منشوراً من عنده حن فيه عن  
الأتراك حملة منكرة كان قصده منها إبطال نصيح العلماء لأهالى السودان  
لا سيما نصيحة استاذ السيد محمد شريف نور الدائم الذى كتب كتيبة  
كان لها تأثير حسن أمان فيها أن أعلام المسلمين الذى تحب طاعته هو أمير  
المؤمنين السلطان عبد الحميد وسمو الخديوى محمد توفيق نبيه على مصر  
والسودان وأن طاعتهم واجبة على المسلمين .

مضت الأيام سراعاً والحال فى الخرطوم تزداد سوءاً وعمد غردون  
إلى إرسال وكيله استورت بك فى باخرة ببلية إلى النيل الأبيض لأشائه  
الطمأنينة فى النفوس ويعرف الأثر الذى أحدثته منشورات غردون  
وصحب استورت فى هذه "رحلة الشيخ عبد الرحيم شبح الدويم و الشيخ  
عبد القادر قاضى الكلاكلة وغيرهما من أعيان البلاد . فلما وصلوا الدويم  
وجدوا الثورة مشتعلة بقيادة أحمد الكاشف وعلى ذلك فإهم ما كانوا  
يقتربون من مكان الثوار حتى بادرهم هؤلاء باطلاق الرصاص عليهم  
فينقلوا راجعين إلى الخرطوم .

ثم ذهب الشيخ عوض الكريم بك أبوسن إلى الجزيرة ليرى تأثير

مشتدودت غردون في نفوس الناس . قلم يعد إلى الخرطوم بل أرسل  
وليه « عي الهد » ليخبر غردون بأن منشوراته كانت بمثابة صب الزيت  
على النار . وإن الثورة مشتتة في كل مكان . وأن هذه المنشورات لم  
تكن لها من أثر سوى إظهار عجز الحكومة وحل الأهالي الذين كان حاضرا  
لديهم نية من أمل في هذه الحكومة على تركها والانضمام إلى المهدي  
قبل قوات الفرصة .

وعندما طلب غردون من الجميلين والداقنة والشابقة وقبائل  
النبل معاونة الحكومة لمنع هؤلاء عن تأييده بسبب قتل سليمان الربيع  
وأعمامه وهدر دمائهم ودماء ذوى قربانهم كما ذكروا له ما فعله من قبل مع  
الجلالة ومصادرة أموالهم وقتلهم في خط الاستواء أولا ثم هدر دمائهم  
ثانيا في دارفور وكردفان كما سبق بيانه وكما أثبتته سلاطين باشا ر في كتابه  
السيف والنار في السودان )

وهكذا وصل غردون باشا بسوء نصره إلى حالة من الخروج  
خطيرة أصبح معها في هم مقيم ونسم أليم . فالثورة متأججة في جميع  
الجهات ولطرق مدودة — طريق بربر وطريق سواكن — يسبطر على  
الطريق الأول محمد الخبير وعلى الطريق الثاني عثمان دقنه . وعندما اشتدت  
بغردون المحنة لم يجد مخرجا من ذلك كله إلا بالالتجاء إلى غريبة الزبير  
باشا . لأن الزبير فضلا عن علو نسبه على نسب محمد أحمد فهو معروف  
هنا أهل السودان كافة بالشجاعة والكرم وحسن السياسة وأهل الخرطوم

وضواحيها من أهله وأنصاره ومريديه . وله أفضال عدة على كثير منهم منذ أن كان حاكما على بحر الغزال ودارفور .

والحقيقة أن الزبير باشا كان رجل الساعة فهو الد المتفوق على محمد أحمد بل ويفوقه قدرة ومكانة . وفي استطاعته أن يجمع جميع القبائل حوله فتعولوا كلته بقينا على كفة محمد أحمد المهدي . فبمك غردون يطلب ارسان الزبير إلى الخرطوم حتى يولي على السودان بشروط معينة ( وهذه الشروط واردة بتاريخ السودان تأليف نعيم شقير ) ولكن الحكومة الانكليزية رغم الحاح غردون والحدوي وكرومر رفضت ذلك رفضا بانا بدعوى أن جمعية إلغاء الرق لم توافق على إعادته إلى السودان . ومن ذلك الحين بات مصير غردون أمرا مفروغا منه فإنه سرعان ما دارت الأيام دورتها بعد ذلك ، وهبت العاصفة فوجم الدراويش على الخرطوم — وسقطت عاصمة السودان في أيديهم ، فكان القتل والتشريد وكان السبي والسلب ، ولقي غردون حتفه ، وقتل من معه من الأبرياء .

وبسقوط الخرطوم سقطت السودان في قبضة المديين ( سنة ١٨٨٥ ) وبدأ الانجليز يفكرون من جديد في خير الوسائل التي تمكنهم من حيل خبوة مؤامرتهم ليس فقط لانهاء حكم المديية بل — وكان ذلك من أهم أغراضهم — ولاخضاع السودان لسيطرتهم والاستئثار بالنفوذ الاعلى في حكومته على نحو ما أبدته الحوادث بعد ذلك بسنوات قليلة .

# محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
تهديم الكتاب بقلم الدكتور محمد فؤاد شكرى بك	١
توطئة الكتاب بقلم المؤلف	١٠
الفصل الأول - التركيبة السابعة	١٨
فتح السودان بياض على دعوة من أهله . ضم السودان لمصر واعتباره وحدة مشتركة . تقدم السودان نحو المدينة والحضارة والعمران . اشتراك الأهلين في الحكم .	
الفصل الثانى - التدخل الانجليزى	٤١
الرواد الأجانب واكتشافاتهم . تدخل الانجليز بحجة أبطال الرق . خلق الفتن وإثارة الشعور . استئثار الانجليز بالادارة .	
الفصل الثالث - مطاردة الجلابين	٥٠
قتل سليمان بن الزبير باشا وقتل أعمامه غدرا بعد التسليم لجيش باشا . فرار رابع الزبير إلى الغرب . نشاط غردون باشا . أعمال غردون التعسفية . دور المرأة في الثورة واستنهاض الرجال للاخذ بالنار .	
الفصل الرابع - أبطال الرق ومحاربة الاسترقاق	٨٢
تمهيد . تاريخ العبودية والرق . الرق في مختلف الأديان . الرق في الولايات المتحدة . الفوارق اللونية في أمريكا . منشأ الدعوة لأبطال الرق . حرب الشمال والجنوب من أجل أبطال الرق . المشاكل الجنسية في أمريكا وأفريقيا . الاندماج الجنسي بين شعوب الوادى . كلمة ختامية .	

المرصع	صفحة
الفصل الخامس — سيرة الزبير باشا ورحله	١١٢
نشأة الزبير باشا . ممارسته للتجارة . مشاركته لآلى عمورى المصرى . فتح بحر الفزال ودارفور . استدعاء الخديوى له . عودته للسردان . شجاعته المختارة .	
الفصل السادس — سيرة الامام محمد أحمد المهدي	١٢٠
نشأة المهدي . ميله للطريقة السانية وتهجده . اتصاله بالشيخ القرشى . اتصال عبد الله التعايشى به . نجوالة فى البلاد واتصاله بتجار الرقيق وتأيد هؤلاء لدعوته . ادعائه المهدية .	
الفصل السابع — الثورة المهدية	١٢٩
قذلكه . من هو السودانى . المهدي . المخلص . القادى . المسيح قديما . ثورة المصريين القدماء من أجل الخلود . الثورة المهدية من أجل الدين . أنصار المهدي . هل كانت الثورة ضرورية استقالة غردون باشا . تعيين رؤوف باشا . تعيين عبد القادر حلى باشا . أعماله استدعاء عبد القادر باشا لمصر . تعيين علاء الدين . تعيين هكس باشا حاكما عسكريا وهرجته . تعيين غردون من قبل الدولة الانكليزية واليا عاما على السودان . اخطاه غردون وتصرفاته . سقوط الخرطوم فى يد المهدي .	

2004-05-06